

افرا

کرم ملحم کرم

2708

الشيخ فريد الدين

دار المعارف للطباعة والنشر

إهداء 2005

أ. د / محمد عثمان محاني

القاهرة

السَّيِّحُ قَرِيرُ الْعَيْنِ

« لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم »
المتنبي

درم ملوچم کرم

السَّيِّحُ قَرِيرُ الْعَيْنِ

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون أنجيليك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف

اقراً ٣٢ — يوليو سنة ١٩٤٥



. جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف

— خذ قلبي مني ودعني ، أريد أن أحيأ بلا قلبي !
وغلبها دمعها فأسندت رأسها إلى الجدار تمطره عبراتها والليل
يلتحف عباءة دكناء ، والنجوم تغور أو تكاد تغور في أعشاشها ،
والسكينة تبسط ملاءتها كأن الكون في سجدة التقى والخشوع .
ووقف بجانب تلك الملتاعة ، الواهبة قلبها ، فتى يصيح فيه
الشباب . ينظر إليها وفي عينيه وميض الخشية ، وفي فؤاده غصة
الجزع . وبحث عن كلمات مصطفاة تنجع في تلطيف الحدة وتبديد
اليأس فما اهتدى منها إلى سوى القول : أَيْكُون حَبِيْلَكَ الْبَاعْثُ
عَلَى التَّيَاعُكْ ؟ . . . صَارِحِيْنِي بِالْحَقِيْقَةِ . لَسْتُ أُرِيْدُكَ تَشْقِيْنِ
فِي سَبِيْلِي !

فما رفعت عن الحائط رأسها ولا التفتت إلى مخاطبها . على
أنها تمتمت بصوت يزخر بالأشجان : أَنَا مِنْكَ فِي وَيْلِيْنِ ، وَيْلِ
عَلَى فِي حَبْلِكَ وَوَيْلِ فِي هَجْرِكَ . فَلَا أَقْوَى عَلَى اِحْتِمَالِ عِبَاءِ
الْهِيَامِ بِكَ ، وَلَا أَمْلِكُ الْجُرْأَةَ عَلَى الصَّدُودِ عَنْكَ . ثُمَّ إِنَّ . . .

وهشم دمعها مقالها فانقطعت عن إيضاح ما تتقد به أضالعها
 وود من تحادثه لو يقف على جلى خاطرها فاستفهم : ثم ماذا ؟
 فأجابت وهي لا تبرح في وقتها : أبى درى بنا . ولقد هددنى
 بالقضاء علينا معاً . فكن على حذر من أبى . إنه لقاهر عنيد !
 فأنارت ضحكه وقال : أيخيف أبوك ؟

فأوجعها أن يستخف بأبيها وانتصبت قامتها وجحد دمعها
 وقالت بغضب : أدعوك إلى الحذر من أبى . فإنه لمغامر بطاش .
 لا تحسبه يصبر على المهانة لضوالة جاهه وهو المسك من الكرامة
 منهاها . فالتفريط فى العفة والسمة لا منفذ له عنده إلى
 عفو وسماح !

فجبهها بضحكة أمضى دل بها على ازدراء قصى ، وكأنه ثلم
 فيها أنقتها فصاحت . لا تقوم كرم الطبع فيك وفي آلك دون
 سواكم من الناس . فاذا قبضت أيمانكم على الثروة فما أتم أرفع
 قدراً ممن هم دونكم أحساباً . ففى الأكوخ من النبل ونصاعة
 الجبين ما لا تحفل بمثله قصور جماعة وافرة من المتزعمين !

فعض شفته حتى كاد يدميها وقد أحس بالصدمة تلهب جبينه
 وترقص حنجرتة . وخشى فلتة لسانه فقبض على معصم الفتاة

وهو يقول بدماثة العتي : نظيرة ، أخطأت وحق عينيك تفسير مقصدي . أبوك رجل فضل ومكانة ، فما حاولت النيل من عصمته . غير أنني لا أومن باستطاعته التغلب علينا ونحن ندين بدين الحب الأسمى . ومن كان الحب دينه يا نظيرة فالجبايرة حتى الجبايرة ، ينحنون أمامه على طغيانهم وينكسون دونه السلاح !

نخفف من غضبتها وهو يحدثها عن سلطان الحب . بيد أن قلقها على مصيرها ما برح يهزها في مستقر طمأنينتها فقالت : لن نكون سعيدين في حبنا يا بهاء . فالجبهة ترين علينا في يومنا وفي غدنا . وخير ما نعتمد الانفصال . فلا ترائي ولا أراك . هذا الحب يأبى على قلبي الراحة وعلى عيني الغمض . فإني منه لفي بمران . أبدأ أخشى الفضيحة وأبدأ ينهشني العذاب . وأنت . . أنت . . لا أثق بدوام مودتك . فكلمنا فكرت فيك راعني أن تكون رجراجاً كالزئبق ، وخيل إلى أنني أقبض منك على الماء !

ونضا مقولها عن مخاوفها . فتهد بهاء وقال بصوت تختلج فيه الرزانة الطامعة في إثبات صدقها : نظيرة ، أنقيم أبدأ على ذعر ولهفة ؟ . . لا أسمعك إلا متأللة ناحية . أنت غير مؤمنة بهيامي

بك . فيتراءى لك هذا الحب المنظورية عليه نفسى نقاخة وشيكة
الانطفاء .

إنك لعللى إثم حاطم فى سوء ظنك . فما أقبلت إالىك مخادعاً
أفاكاً ، بل جئتك وضميرى فى فمى ، وقلبى فى يمينى . ولا أبرح
على عهدى ، وإنى للمجرم إذا خطر لى أن أهو بك ثم أسلوك .
فأنت على الأمد فى أرفع منزلة عندى . وهو منطق طال تردى
إياه فى مسمعك وأنت ماضية فى ارتياك بى وحذرک منى !

قالت وهى تجاهد نفسها فى رفع الاضطراب عنها ولا توفق
لبغيتها : بهاء ، لم يكتب لنا زمننا الهناءة فيما دعونا حباً .
إن ما أكابد من ضنى يكرهنى على خلع ميولى عنى . فانس من
عاهدتها على الإخلاص . أنا ما دعوتك إلى سوى معالنتك
رغبتي فى القطيعة . فلقد بلغنا هذه المرحلة من الحب على أشواك
ولم نعرف من السعادة غير نزوة عسيرة . فلتنكص عن المطلب
الوعر . يكفيك ما عانيت من مذلة فى هذا الحب المعتل الركن
عُدْ إلى أهلك إن أهلك لمن الصفوة فلست بحاجة إلى فتاة حقيرة
مثلى لا ترفع من قدرک ولا تليق بمقامک . فإن سموها إالىک ينقض
من منزلتك ولا ينهض بمنزلتها . فتظل أبداً على منقصة وشين !

فصاح من شفتين تضطربان ارتبكا والماً : ينقص عيشي
 هذا الحديث الجافى . لو كنت أقرأ عهدى على الكفرة لآمنوا
 بسلامة طوبى . أما أنت . فلا تؤمنين . علامَ تريدننى كى
 تبينى على يقين من صدقى وطهر ضميرى ؟

— أريدك على التناى ، فلفنا النسيان بحجاب صفيق !

— أنا لا أقوى على النسيان ؟ أتقوين عليه أنت ؟

— أعوده إذا بادرتنى به !

— وما يفيد النسيان ؟

— أنجوبه من سقم روحى وسهرالى !

فتأوه وقال : ما أشدك على فى إحسامى ، أريضك التناى ؟ .

لست والله أطيق له ظلاً ولا يدنينى إليه هوى . أحبتك وسأقيم
 على حبك حتى يجف هذا القلب ويصير هذا الجسم إلى تراب

وستتضمخ بعد الموت بعبيرك روحى ناعمة بما خلع عليها حبك من
 طيب . وإن مائدتى لتفخر بمجلوسك إليها وتشع بسناك دارى .

وإذا حاول أهلى سلخى منك فلا كان أهلى . وإن يطب لأبيك

احراجى والخوول بينى وبينك مخافة أن أتمتع بك ثمرة يانة

والفظك نواة ، فما أوهى حاسة الإدراك فى أبيك . إن من أقسم

لك على الوفاء حتى يطويه الكفن لا يبرح ولن يبرح منك على
المنجاة الإخلاص والإجلال .

وملك من بلاغة الإقناع ما زحزح الفتاة عن بلبالها . فسددت
إليه نظرات لو حببها الغبشة نفحة الجلاء لأيقن أن بيانه حوى
من ذوب السحر ما راع وقتن . ولم تتكلم نظيرة كأنها أصيبت
بالخرس ، بل كأنها لا تزال ترقب هذه الشوادي . وضايقه سكوتها
فأعلن بحدة العاشق السخي بقلبه على ما تبيح العطية السمحة
وتربة أوى وأجدادى ، سأنتفض الساعة على أبيض أهزه فى
فراشه وأدعوه ليعقد لى عليك . وإن أبى طرت بك إلى حيث
لا ترانا عين وقضينا العمر بمنجاة من الكدرة !

فهمت به : أتفعل ؟

— وما يعوقنى عن الشدة أبلغ بها ماربى ؟

فأعلنت بمضاء : أنا أمتنعك عنها ؟

— أفلا يرضيك أن نعيش معاً بعيدين عن الشغب

والكرب ؟

— إنى لأمانع ما دام أبى لا يرمى !

— سيرضى أبوك. على أنك لى فى الحالين، فى سخطه ورضاه!
 فأوجعتها منه الاستطالة وقالت بنزق : دع عنك التباهى
 بطول باعك . إذا رفض أبى فمن المحال أن يلتئم لنا شمل !
 — وحبنا ما يكون منه أيتها الجاهلة ؟

— ليمت . موته خير لنا من حياة كلها إيلام . فما دام أبى
 لا يرضى فلا تطمع فى أن ترانى بجانبك مع كل ما فى نفسى من
 حنين إليك !
 — نظيرة !

— هذا عهدى . لم يدفعنى أبى إلى الوجود كى أطلع مشيه
 بالأنراح فهو يفرض على فى الحياة نهجى ولست أحميد عن
 طريق يرسمه لى !

— وإذا قضى علينا بالانفصال ؟
 فأجابت بشموخ قهار : كلمة أبى شرعة مسنونة فلا مرد
 لحكم أبى !

فناظله اعتصامها برأى أبيها وقال بصوت خشن تعلوه الكدة :
 أنا منك فى حيرة . ترتابين بحبى لك فأعرض عليك الزواج ،
 فتقيدننى بأبيك . هذا دلال ظلوم ، غرك منى الهيام بك فبطرت

هلا علمت أن بين جنبي قلباً لا يطيق الجور ولا يأنس بالتجنى ؟
فكان جوابها مبرماً : مشيئة أبي لا تنقض . فاذا أبي أبيت
وقد أجنى في الممانعة على نفسى . فأدوس آمالي وأبعثر أزهارها
في كل ريح . إلا أنى لا أصدم أبى فى رغبته وأنا أوتر قهرى على
قهره . ولن أقوده إلى الهزيمة يكتبى بها على مدى العمر . قلبى
لك . وكل نبضة فى دمي تنبض بحبك ، إلا أن مصيرى رهن
مشيئة أبى !

فهز برأسه وقال بحسرة : وهبت لى نفسك ولم تهبى لى منك
شعرة .. كنت أعرض عنك وأبقىك لهذا الأب تتمرغين فى
رضاه ، ولكن شغفى بك يابى على أن أعاندك . سأخاطب أباك
فيك وليس من مخاطبته بد . غير أنى كنت أعتقد أنك ستنتقلين
فى أثرى حتى على مكابرة أهلك . وأنا أعرف أباك وما خفى على
كرهه لأسرتنا . فإن ضيق طبعه يشد به عن إقراره إيانا على
سيادتنا . فشنها علينا حرباً لا لين فيها ، يحسدنا على النعمة
وينطوى لنا على حقد مبيد !

« أجل ، سأخاطب أباك فيك وإن نالنى من كيدہ الذل .
فإن لؤمه لينضنض فى كل كلمة يقطر بها لسانه ، وفى كل نظرة تنفثها

عيناه . لا تحاولي إقناعي بأنى على وهم وظنة . أنا بأبيك أدرى
الناس ، أما وأنت تكرهيننى على المثل أمامه منحني الهامة
كالذليل ، مبسوط الراحة كالسائل ، فسأمثل أمامه ابتغاء
مرضاتك . ألا فلينع هذا السيد الفخم بعظمته وسلطانه . فقد
عكست الآية وبات السيد مسوداً والعبد طاغية يأمر فيطاع !

وابتعد عنها لا يريد أن يسمع منها كلاماً . فقد نزل على
حكمها وسيحقق مبتغاها مع كل ما يلقي فيه من غضاضة وامتهان .
غداً يقف في حضرة أبيها بعد ما كان أبوها يتشهى الوقوف أمام
جد بهاء وأبيه ولا يوفق للأمنية .

ونادت نظيرة الفتى المبتعد عنها كي يبقى لتفنى إليه بما
لا يزال يرسب في حناياها من أشجان فلم يرجع إليها . لقد مضى
في طريقه دامي النفس ، مرضوض الجنان . غير أنه وطن النية
على فكرة واضحة سديدة . نظيرة له مهما اعترضه من صعاب . فما
تعود الوقوف في مفترق الطرق على ارتباك . إن طريقه لمشقوق
أمامه ، فليحذر سليم العياش ، والد نظيرة ، من معاندة المقدور !

هذا الغنج في الخطو، والدل في اللفتة، لم تعرفهما بيت مري
في سوى زهرتها الغيداء نظيرة العياش، نظيرة المتوجهة فتوناً وندى
في بيت مري العارمة، المسكة بقمة ناتئة من قم لبنان الخضر
مخافة أن تتدحرج إلى الأزرق الرجراج.

والأزرق الرجراج من بيت مري بساط ممتد الرحبة، متصل
الأطراف بالأفق حتى ليختلط البحر بالسما. فتقف العين حسيرة
عن ادراك منتهى الزرقتين. كأن السماء والماء دفئا كتاب على
وحدة في المتن واللون، انشقتا عن مباهج الأرض المنمقة السطور
المبرقة الكلمات.

ونظيرة العياش أغنية عذبة النغم. نشوى القرار، في قدها
الريان وعذوبتها الخصاص. تمشى فتجر وراعاها موكبا من عيون
رصعها الأعجاب، وتنظر فتنتقل عيناها السحر إلى قلوب ألقها
ديب الغرام.

وخشيت الأم على ابتها من ذوى اللحظات الخبيثة
نخاطت لها في قميصها خرزة زرقاء تقيها العين الشريرة الجوفاء.

وراع الأب ما يرى في ابنته من تباشير الطلالة ، وما يقع في
 مسمعه عن نظيرة من مخمور الثناء فاقبل عليها يقول بجفاف النذير:
 أزقة القرية لا تكثرى من الجولان فيها . والسوق لا حاجة بك
 إلى ارتيادها . مجالك البيت وغابة الصنوبر تراقك إليها
 أترابك . حسبك من دنياك هذا المدى !

ورقص فيه السخط الرعاد : فالراعى يغار على خرقانه من
 غدر الذئاب . وسليم العياش ليس يجهل بيثته ولا ما ابتلى به
 زمنه من رث كرية . فما نعمت به نظيرة ابنته من حسن نضيج
 أقلق باله ، فتولاه الوجوم . إن في هذا الجمال الصباح لاغراء
 وفتنة . ولا بد لمن يملكه سلطان الرواء الصفى من نصب الأحاييل
 ولا بد للزهرة الحائمة عليها الفراشات الوهنى من إباحة حلاوتها
 لمرشف أثير .

ولا لقاء السقطة وقف سليم العياش من ابنته مفتوح العين .
 فمنعها من المخالطة وبراح المنزل . بل هو اختار لها بنفسه صواحبها
 يحاول أن يسد عليها منافذ الضلالة . وبحث لها عن قرين كفى
 وما ارتبك في الاصطفاء . سيرفها إلى ابن شقيقته نصير الهانى
 المناضل فى المكسيك بجمع يديه لحشد المال . ولم يشخص وحده

إلى أميركا يغرف منها الذهب فقد رافقه إليها شقيق نظيرة ،
سعيد العياش الفتى المقدام ، الواسع المنكبين على رجولة ، المديد
القامة على مضاء .

وما دفع سليم العياش ابنه إلى أميركا عن رضا ، بل شاء أن
يضمن لهذا الابن البادى الصولة ، غداً وارف الظل لثلاث سطو
عليه الحاجة ، فأطلقه إلى بلد الهمة يجالد فيها البؤس . فلا يبيت
في القرية فلاحاً منبوذاً يسوقه آل غندور في خدمتهم كما شاؤوا .
فيتفصد جبينه عرقاً ويظل في شهوة إلى اللقمة ولا يستر بدنه قميص .
لا ، لا يريد سليم العياش لابنه الفتى الواعد هذا الرسوخ
في العبودية . فيكفى ما كابد الأب من الشظف الدميم . وماذا
لقى ؟ ... حاول أن يتنفس وأن يبوح بنفثات صدره فتخلي
عنه آل غندور ، سادته ، واضطهدوه . وهال سلباً أن يشبه
ابنه في مصيره فأبعده عن القرية . فلن يقضى سعيد أيامه في
بيت مرى يجمع الضيم ، بل سيفزو أميركا برهافة عزمه ويعود
منها شاهراً لواء التوفيق . فيبنى في قومه مجداً يضارع مجد آل
غندور ، وقد يكسفه . وينشئ الدور ويشترى الحقول . ويتوفر
على خدمته من يريدونه على خدمتهم . فالجفوة المقيم عليها سليم

العباش ليس يرضى بها لولده وفي الدنيا ميدان جهاد لن يكبو فيه السعيد .

وسليم ، وقد نغم عليه السادة لاستطالته عليهم في ساعة كافرة معربة وأقصوه عن الاشتغال في أرضهم ، حشد في كوخه أقرانه يوغر صدورهم على السادة فتفتحت العيون ، وشعر القرويون بالإجفاف المقيت ، إلا أن الفريق الأكبر قتل شعوره وظل متربعا في ولائه لآل غندور ، يطعمهم لحم أكتافه وكرامته ، متجاهلا رسالة سليم العباش وقد رأى فيها ثورة تحض على هدم التقاليد

غير أن سليما مع ضؤولة أنصاره نعم في بيت مري بجاه رحيب فالأحاديث في السهرات ، إلى جنب الموقد ، أو على المصاطب تحت أشعة القمر الهائلة ، تدور عليه . فبات في سمع القرية وبصرها . وزاد الألسن لهجاً به روتق ابنته . فمن هو الوسيم الطالع المكتوب له الظفر بهذا الحسن النضيد ؟

وتلفت أبناء القرية بعضهم إلى بعض ليبتدوا إلى الفارس الجدير بنظيرة العباش فلم يجدوا بينهم الفتى المحظوظ . بلى ، سمعوا والد نظيرة يطنب في امتداح ابن شقيقته نصير الهاني ، المقتعد

منكب الهجرة ، فأدركوا أن نظيرة لتصير . ولن تشقى ابنة سليم العياش في زفافها إلى ابن عمها الراجع في الثروة والشباب والحمة . فهو في المهجر منذ سبع سنوات ، وقد وافى أمه في هذه السنوات السبع بما ضمن له الكروم والحقول الخصيبة الجنى ، كأنه - يخزى العين ! - في دار هجرته على نبع دفيق .

وخيال هذا الاصطفاء ركبت الشهوات ، وبردت الأشواق ولكنه جمر تغلف برماد . وإذا همس يعلو فتجحظ له العيون وتضطرب الضمائر . يقذف به النغم إلى الأذن في وشوشة خرساء ويترجح على ريبة في ما ييث . هذا نبأ لا يجد المصدقين لوعورة أرضه وعسير وقوعه . فمن المحال أن تهوى نظيرة العياش أغنى أغنياء بيت مرى ، بهاء غندور . وإذا ماج في صدرها هواه فهل يجيبها الفتى إلى خلجة الحب فيها وهي من أرض وهو من سماء ؟ وماذا أبقى أبوها من مثلية ولم يفضح بها آل غندور ؟ . . . فإن تكن نظيرة أجمل فتاة ، وإن يكن بهاء أجمل فتى ، فهل يتصافى الماء والنار ، وهل درى سليم العياش بهذا الحب العجيب ؟ ولكن الإشاعة تتردد وقد هبت ريحها . فتحدث بها الرجال تحت سقوف الدكاكين ، وفي الساحة ، وعلى السطوح . وتناقلتها

النسوان على المصاطب ، وفي الأزقة والتنّور . وتلبد جو بيت
مرى بالغائم السود كأنّ أمراً خطيراً قد نشب .

وبات الجميع ارضاداً . فهاج الفضول كل نفس وأضحى
بهاء في حلقة من المتجسسين كيفما اتجه والتفت . وجالت الأبصار
في نظيرة تكاد تسدّ عليها مجال التنفس . فهي في نطاق من
العيون . وإذا الذي أنكره القوم وترددوا في تصديقه ، حقيقة ساطعة
الوجه . بهاء غندور يلقي نظيرة العياش في غابة الصنوبر . فمزقت
الألسن حجاب الهمس واقتحمت المصون . فما بقي في القرية
من لم ينضّ في سمعه الخبر ، عدا أنسباء نظيرة . فقد تحامت
الكياسة تخديش آذانهم بالنبا الصافع . غير أن النظرات عند ما
تجول في سليم العياش تبدو كأنها سياط لاسعة . وهال العياش
وقعها فودّ الوقوف على سرها . وعجز بعضهم عن الإمساك فشفع
النظرة بابتسامة خبيثة جنّ منها والد نظيرة وكاد يرزح تحت عبثها
مكسور الجناح .

وسأل نفسه وهو يتحرّق : ما يحمل القرية على جبهى بهذه
الأشواك ؟

ودهمته الخواطر الممضة . وملكه شوق ملحاح إلى إمطة

اللاثام عن الأحجية . وفزع إلى صديقه نادر الصراف وهو خدين
يعتمده في الدواهي ويثق بمكين ولائه : فزع إليه مستجيراً من
ويل يشعر بخطرته ويجهل وجهه . قال : نادر ، جئت إليك عائداً
بك . في جو بيت مرى ماليس يرضيني . فأني أحس بما يخنقني
. ولا أدري ما هو . فأنقذني مما يخنقني يرحمك الله !

وظهر فيه السقم . فهو عليل الروح . وارتاع نادر الصراف
وهو يتبين في سليم العياش الوهن وعمق الغضون . ولكن بهم
يحدثه وما يقصّ عليه ؟ . . . أبلغه ما تلغظه الشفاء من أمر
نظيرة وبهاء غندور ؟ . . . إنه ليطحن عظمه : فقال سليم بذلة :
نادر اصدمني بالحقيقة على هولها في من الرجولة ما يهب لي الصبر
على المحنة . ولست أطيق أن تزدريني العيون دون أن ينجلي لي
سر استخفافها بحليفك وأليفك . إني لزاحف إليك على استعطاف
أسألك في أمري ، فانفض عني لهفتي وارتابا كي ، رحماك !

وكاد هذا الشيخ الهازيء بنوائب الزمن ، وقد كالفها وناقرها
يرش الأرض بصيبب الدمع . فأى لطخة تشينه ؟ . . . لا ريب
أن هناك لطخة ، ولكنه يحس بها ولا يراها . كالعاصفة الهائجة ،
يبدو أثرها ولا تلوح يدها .

وما انتفض جأشه بريبة تطول ابنته . نظيرة اسمى من الظنة
 هذه ناحية يستوى فيها على أمان . ورقب من نادر الصراف أن
 يفصح عن المكنون . ورام نادر التجاهل يمضى فيه . فليس
 يدري . غير أن الشفقة على صديقه الدليل الوقفة أدركته ، فقال
 بغممة يتمطى فيها البيان الحسير : سليم ، داؤك فى كبذك .
 نظيرة لا تتنكر لبهاء غندور !

فشكت النبلة فى النحر . وغار سليم العياش فى نفسه حتى
 كاد يمضى . ماذا يسمع من مبيد ؟ . . . غير أنه أبى التصديق .
 محال ، محال هذا النبأ الهادم . وعلت صيحة سليم قاصفة تدمدم
 باستفهام ساخر : ابنتى لا تتنكر لبهاء غندور ؟

فهو يرتاب . ليس يؤمن بأن ابنته تهيم بعدوه وابن عدوه .
 إنها لقرية يرجف بها خصومه لغز صلابة مكسره . واشتعل
 حنقا وإرعادا يكيل الشتائم طفاح فمه . وخشى عليه نادر الصراف
 فصاح به : أبا سعيد ، على رسلك ، قد يكون النبأ من نسيج
 الكارهين ، حاكوه على بهتان ومين . نظيرة لا تنفل إلى
 تشويه عرضك ووصمك بالمهين الخسيس !

ولكن الضمادة لم تذهب بألم الجرح النفار . فالمنعة الرائعة

فيها نظيرة في مقعد أبيها التوت حصاتها وطفى عليها سوء الظن .
وكل جهد أبداه نادر الصراف في سكب البلسم على مغرز الطعنة
لم ينجع في تبديد الصعقة . فتبدلت ملامح سليم العياش وخانه
المنطق . فهو حطبة يابسة تلتهمها رزيتها .

وود أن ينفي عن ابنته التهمة ، غير أنه قرأ ، أو تراءى له أنه
يقرأ ، في عيني نادر الصراف الكفران ببراءة نظيرة . حتى أعز
صديق يساوره الشك . فانطلقت من حنجرة سليم الجافة ،
الشائكة البحاء ، حشرة مقضضة كادت تخنقه . قال : نادر
إن تكن ابنتي شوهت معصوب الطهارة في جبينها فإني لمصرم
فيها النار على مرأى من القرية كلها . وضع لي الآن سرُّ
النظرات المسددة إلى . أنا في مهب مصيبة جاثمة . ولكني وأنت
تعرفني ، لست بمن تلطمه الإهانة ويشوى على اللطمة . لا وحق
أبيك ، فالشرف الموصوم بالخزية لا يغسله عندي غير الدم ؟

واستجمع قواه ووثب إلى منزله شرراً يتطاير . ولم يكن يتبين
طريقه ، بل لم يكن يدرى أيمشى أم يطير . وضافت الأرض
عن غضبته . ومع سعيه لغمض عينيه لئلا يرى من حوله بوجوههم
الشامته ، الهازئة ، كان يحيل إليه أن بيت مري بأجمعها ، من

شيوخها إلى شبانها ، إلى مصغار الأولاد فيها ، عيون ساخرة ،
ضاحكة على خبث ، نافثة منبوذ لؤمها واحتقارها عليه !

٣

— يا ملعونة الوالدين !

وهاج سليم العياش كالضواري في وثبة الروح وهو يدمدم
لعنته . واهتزت في يمينه عصاه يكاد يفرع بها رأس ابنته وقد
قبضت يسراه على عنق نظيرة توشك أن تخنق في الصدر الأنفاس .
وارتجف سليم في ثورته الأكل لفرط غضبه واضطرابه . وطارت
إليه امرأته مذعورة ناتئة العينين ، فما اعتراه ؟ . . . هل فجأه
مسٌّ من جنون ؟

ووقفت بينه وبين ابنته تحول دون انقضااض الضربة على
الفتاة وتقول باسترحام لاهث بكى : ماذا جنت كي تقتص منها ، أى
ذنب تأخذها به ؟ . . اضربنى بعصاك وارحم ابنتك . أنا الجانية .
حطم رأسى وادفع عن نظيرة الويل . عفوك عنها ، الأمان !
فكاد يتفزر . وأدار وجهه يمنة ويسرة كي تفرج حنجرتة
عن فورة احقاده . وصاح بامرأته صيحة المختنق : ابتعدى أيتها

البلاء وإلا نزلت بك الضربة . تهاونك في تهذيب هذه الشقية
 رمانا بالعار . اقسمت على التنكيل بها . فالفضيحة في بيت مرى
 صبغت مشيننا بالشين ابتعدى . هذه العائبة قليل فيها الذبح !
 فرفعت يديها تتلقى بهما العصا وتحاول اقتزاعها منه . قالت
 بلغة الدمع المظلوم : من سعى بها إليك ؟ . . . كذب المفترون .
 ابنتك ليل نهار في المنزل . وأى إثم تلصق بها ؟ . . . أتجهل
 في بنى قومك الاختلاق والبهتان ؟ . . . اضربنى ولا تمسها
 بأذى . اسفك دمي قبل أن تستل شعرة واحدة من رأسها .
 هل رزقنا عشرات الأولاد كي نجازف بهم على هوانا ؟ . . . من
 عندنا ؟ . . . هذه وذاك . هي بيننا وهو في الأقاليم . لا ضيقها
 الله على مخلوق !

فركلها برجله فتدحرجت في الأرض كالدولاب . غير أنه
 ما أهوى بالعصا على ابنته الساكنة بين يديه كالجرم الذليل ،
 المشدود الوثاق ، حتى كانت امرأته قد انتفضت من سقطتها
 واندلعت إليه تتقى الضربة بيمينها فكادت تتحطم بيمينها .
 وأعولت فأقلقت الحى فأطل الجيران وما تعودوا النكار والعياط
 في كوخ سليم العياش . ورآهم سليم مقبلين فأفلت ابنته واستطاع

أن يكره نفسه على البسمة وهو الضنين بسمته . وتظاهر بأنها غضبة عارضة . ثار في لحظة وهذا في لحظة . فلا سبيل إلى التدخل في مصالحه والاستشفاع في منكوب .

وانكماً الجيران معجبين بحدة ذهنه وسعة دهائه وما خفيت عليهم حيلته . شاء تأديب ابنته عن زلتها وقد أجابت بهاء غندور إلى هواه . وأقبلت امرأته تدافع عن ابنتها فانقضت عليها العصا وتعالى فيها الصراخ وحالة الأم والابنة تكشف الموقف بجلاء . فالابنة في خجل الخاطيء والأم في عواء الملسوع ، المحطم اليد . وما خلا المكان من الغرباء عنه حتى عاد سليم العياش إلى ابنته يقبض على معصمها بغلاظة ويجرها إلى زريبة الأبقار . والزريبة في القبر المشيد عليه المنزل . وأغلق سليم باب القبر وخلا بابنته في الأعماق . فلا يُسمع صوت مها علا ، ولا يسرع إلى النجدة إنسان .

ورمى نظيرة في وسط الزريبة ، على الروث ، وجثا على صدرها وقد اخترط خنجره يده ليليق المقال . وهدر بعريضة ليس بينها وبين الجنون رقاقة : نحن هنا وحدنا أيتها المفضوحة . حدثيني ملياً عما بينك وبين ابن غندور من مودات ، منذ كم تعرفينه ،

وما هو مدى صلتك به ؟... أجيبي دون إبطاء . واحذري الكذب .
 فالكذب يقودك إلى حيث تسكن الخواقق . أنا بغنية عن البنات !
 ولملح خنجره يحاول النطق . وأحست نظيرة بالنصلة الباردة
 تحز عنقها فلم ترهب مع انتشار البرودة في عروقها . قالت برباطة
 جأش منعمة بالصفاء : أبي ، أنت حر في مصير ابنتك . إذا
 شئت أن تسفك دمي فليس من يصدك عن مبتغاك !
 فروعته سكينتها وقال بغيظ يحتمد : أنا أدرى منك بمبلغ
 سلطاني . كل ما أدعوك إليه إيضاح موقفك من ابن غندور .
 أي رابطة توثق بينكما ؟

فأعلنت بصدق لا تعرفه رهبة : سأطلع أبي بأمانة على خفي
 أمرى . بيني وبين بهاء غندور صداقة وولاء بريثان ، لا يشينان
 فتاة تحدرت من رجل عطر الأحداث !

فأدركه الجريض الناعم وارتجف . وشدت يده بشعر ابنته
 وارتفع خنجره على أهبة للبطش . وعادت النصلة إلى يريقتها المتواعد
 فلم ترتجف نظيرة كأبيها ، بل تابعت مقالها بوعيتها المطمئن إن يكن
 في ما بدر مني ما يؤلم روح الحفاظ في أبي ، فليغسل بدمي شرفه
 المثلوم . نظيرة العياش لا ترتضى إذلال أبيها العالى الجبين ! .

فناحت فيه زفرة المقهور : قتلتِ أباك يا ناقصة . هل غاب
 عنك ما بيني وبين آل غندور من جفاء ؟ . . . اتصالك ببهاء
 لطفة على خدى وجرة في قلبى . لقد درت بكما القرية وعقدت
 عليكما الأقاويل . فالجميع ينظرون إلى بازدراء . هم يعيروننى
 بشماتة وحقه سفالتك وهوانك . وجدير لى للخلاص من المستهينين
 بكرامتى أن أبيضك لخنجرى ينتقم لى منك !

وحاول إغمد الخنجر فى نحرها فما أطاعته فى قتلها يده . لماذا
 الفتك بها وهى لا تبرح تعتصم بطهرها ؟ . . فلو بدر منها ما يهدم
 مصون العفة فيها لبات فرضاً إخماد أنفاسها . وتولته حيرة ممضة
 وشعرت نظيرة بتردده فقالت وهى ممسكة على هدوئها : كل
 ما أصبو إليه ، وأبى يميل إلى إراقة دى ، إبلاغه أن شرفه
 لا يزال يرتع فى جامه . ما امتد إليه ظفر بخدش . ولا تجرأت
 عليه عين مقحام !

فزادت فى ارتباك . وخارت قواه حيال الملة الطارئة فسقط
 الخنجر من يمينه وندت جبينه برودة الموت . وتأوه . لقد ناء
 صدره بأشجاناه . ابنته تأرت منه لآل غندور . وإنه لثأر مجحف

وقف منه سليم العياش وقفة المغبون . فليس يقوى على ذبح ابنته
ولم يدنسها هوى كفور ، ولا يستحل العفو عنها وقد مالت إلى
عدوه وأباحته لكل لسان عضو .

غير أن وهنه لم يطل . فاستعاد همته وجذب إليه ابنته من
شعرها حتى أضحت عيناه في عينيها ورشقها بقوله : يا قليلة الحياء ،
كنت أحسبك تغارين على مقام أبيك فاذا بك تبيعيني بما
دون الهبأة ، بحب كذوب . ولو كنت تجهلين موقفي من آل
غندور لعذرتك ، أما وأنت مطلعة على ما بيني وبينهم من
مستعصى العدا فأي عقاب لا يجوز فيك وقد عرضتني لنهش
الأنياب الشامتة الرهاف ؟

فأغضت على ندم وقد شعرت بأنها خاطئة لا جناح على من
يرجمها بحجر . وما تمالككت أن تعلن ندامتها بصوت يموج فيه
الدمع : عفوك من طيشي . زلت بي القدم حيث لم تسعني القدرة
على الثبات . زين لي بهاء غندور الدنيا رياحين فأمنت به
وكفرت بك . هذا جهل مني جزاؤه الموت . فاستر بسماحك ذلي
وإلا فهالك دمي . واقتلني إن لم يتسع حلمك الندى لعقوقي الأثيم .
فعاد إلى الجريض كأن في حنجرتة حسكة تؤله . أيعفو ؟ .

لم يكن من العفو بد وقد شعر سليم العياش بالرفق يرجح فيه على
 السخيمة . فهو يحب هذه الفتاة النبيلة في أنوثتها ومواهبها .
 وصفح عن طيشها مع أن وجهه لم يبرح على اكداد الخزية .
 قال مهدداً كأن خنجره بات لسانه : قبحك الله . ميعانك قتل
 فينا الأنفة . لاح لي فيك الطيش فنهيتك عن الجولان في أزقة
 القرية مخافة سقوطك في المهواة فما اهديت بنصحى . أين لقيت
 بهاء غندور ونمت فيكما هذه المودة المنكودة ؟

فجمجت من شفتين مطبقتين كأنهما تمانعان في أداء الكلام :

لقيته في الغابة !

فتعاطمت حدته وهزها بشعرها هزة لوت عنقها وصرف بأسنانه
 وهو يقول مزبداً : في الغابة ؟ ... على خلوة ؟ ... أجيبي

يا ابنة السوء !

قالت : بل لقيته وأنا في سرب من أترابي . وسقط مني ذات
 مرة مندبلي فحمله إلى وخاطبني بأدب جم معتذراً عن إزعاجي .
 وأضحى كلما لقيني حيّاني وابتسم لي . وأيقنت أن مخاطبته على
 حرام وبينك وبين آله تقار تليد فامتنعت من الجولان في الغابة
 فأوفد إلى من يقول : الغابة مجال الفسيح ، فلن تدوسها قدمه ما دمت

لن أَرْضَى عن رؤيته فيها . وهذه الكياسة منه حبيته إلى . فرسخ
 هواه في نفسى دون أن أدري . وتلاقينا على انفراد ، بلا موعد
 مضروب ، قباح لى بحبه وما استطعت إلا أن أصغى إليه وأبادله
 عاطفته . وما غاب عني أنى مجرمة إزاءك مع استمساكى إزاءه
 بعفتى فطار عني صفو عيشى وذهب السهوم عمرحى . ورغبت فى
 خلع هواه فأسقط فى يدي . فهو أقوى على منى . أما وقد وضح لك
 الأمر وليس ترضيك هذه المودة فسوف ترانى من نواهيك على
 حفاظ . لا أعبت لك بمشيئة مهما قست ولا أستبيح نطاقاً تضربه
 فأصفح عن زلتى وبؤسى ؟

فكان صفحه عنها أن ضرب رأسها بالأرض على دفعتين
 وصاح مرعوباً : يا فاجرة ، كنت أوثر ألا أسمع منك هذا
 الإيضاح الذبّاح . لست أعلم كيف عصتني يدى فى القضاء عليك .
 إنك لطويلة العمر . بيد أنك لن تعيشى لسوى قهرى . إني موقن
 بما سأعانى من غرورك . ولكن الموت لك بالمرصاد . فهو سيف
 مصلت فوق رأسك يهددك أبداً بنخطف روحك فكوتى على حذر .
 أبوك ليس ممن تداس فيهم الكرامات . التفاته واحدة منك لا تحظى
 برضاى تدرجك فى أكفانك . عفوى لا يوهب لمخلوق مرتين !

ونهض والغضبة لا تبرح تنفث في ضميره سمها، فقد أحس بأنه
 في سماحه مغبون الصفقة . وأوشك أن يفتح باب الزريبة وأن
 ينسل منه . إلا أن فكرة وثبت إلى خاطره أهابت به إلى النكوص
 فعاد يقول : وبماذا خاطبك بهاء غندور ؟
 فأجابت : هو يريد أن يعقده على !

نخفف الجواب من غيظه وسخطه . فالمصاهرة بينه وبين
 آل غندور تقيم منه عديلاً لهم يساويهم في مجدهم . على أنه كفر
 حتى بالمساواة وهو يطمع في الرجحان على السادة . وغمغت
 شفتاه فيما انتشى بالبهجة قلبه : لن ينال المنكود منك قلامة .
 فلا ينشد المحال . إني أمنعك حتى من النظر إليه . لن تبرحى
 المنزل وإلا إشتريت لنفسك الموت . فاحذرى أن تلعبى بدمك !
 وفطن إلى خنجره المطروح في الروث فتناوله وأدناه من نحر
 الفتاة وهو يقول هادراً : موتك لا يفرض على المشقة . ليس لي
 إلا أن أسقى هذه الشفرة من ماء قلبك . فإذا طاب لك أن ترويتها
 فامضى في شذوذك !

ومال على الباب يفتحه بخيلاء . بهاء غندور ، ابن أرفع بيت
 وأنبل أسرة في بيت مري ، يرجو مصاهرته . ولكن سليماً لن

يصاهر آل غندور . سيبدى لهؤلاء السادة أنه أكرم منهم
عنصراً وأسمى طينة . فليقتلوا على نار . وراعه ما يرى أمام
الباب وهو يفتحه . هذه امرأته مطروحة عند العتبة كشجرة
أناختها الفأس . فاضطرب سليم العياش . ماذا أصاب امرأته ؟ ..
غير أن الحقيقة لم تلبث أن نصت بها بصيرته . خافت امرأته منه
على ابنته فأقبلت تنقذها من انفجار ثقلته ولاح لها باب الزريبة
مغلقة فقطعت من الإنقاذ كل رجاء . والخشية من القضاء على
نظيرة صرعت الأم فهوت أمام الباب بلا حراك . فأمسك بها
سليم يناديه . فما أبدت نعشة وأقبلت ابنتها تهزها وتصيح : « أمي ،
أمي ا . . . » ففتحت عينيها . صوت ابنتها نفخ فيها الحياة .

وبسطت الأم ذراعيها على تلاشيها تطوق بهما ابنتها وهي
تعلن متعثرة بدمعها : يا حبيبة أمك ، ألا تزالين في الوجود ؟
وامتزج الدمع بالدمع ، ولانت الخشونة في سليم العياش فما
تماسك حيال المشهد الأسيان . وحبا إلى المنزل على تأثر وانحناء
كيف خطر له أن يهدد ابنته بالخنجر وأن يهزم بذبحها وفي هلاك
ابنته هلاكه ؟ .. وأجابت كرامته الطعينة بما أزال من دهشه .
ابنته كادت تهدم سمعته وقد قام بما عليه لدرء الخطر الفاضح .

وليس بالنادم على ما بدا منه وثمة ذود عن صيته .

ووثب إلى ساحة بيت مري يعرض نفسه على أبناء القرية كأنه يقول فيهم : هلا أبصرتوني؟ . . أين عيون الشماتة والغدر تلفوتني بها من رأسي حتى قدمي ؟

ابن غندور يلتمس أن يكون له صهرًا وهو يمانع . واستقر في دكان نادر الصراف يحشو غليونونه ويجلس القرفصاء ويسند ظهره إلى الباب . وضحك ضحكة الظافر . وكل من مرّ به لمس فيه الهمة والإشراق . فنفض عنه ذله واستأسد وأضحى يرد النظر الساخرة بنظرتين منتفختين وتعجب منه حتى نادر الصراف صديقه . فما هذا الانقلاب فيه بين صباح ومساء ؟ . . قال نادر : إيه يا أبا سعيد ، أراك تبدلت فهل وقعت في النبا على فرية ؟

وكان هو يرقب من يحكه لينفجر . فصاح بصوت طنان : نغائرة أرفع من أن تتسفل إلى الخمازي يا نادر . فما تعودت أن تغوص في الأوحال . كل شماتة بنا حق وسفال . وكل ظنة إثم ومين .
ولسوف ترى !

وتخاذل . أبناء القرية عن استطلاع التبدل في أساريه ووقفته . كان جبينه لاصقًا بالأرض فإذا به يشك في السماء .

فما هذا التيه بعد ذاك الانكسار؟ . . وتساءلوا فيما بينهم عن السر
وهم على قلق وكدة . فما راقهم أن يرفع سليم العياش رأسه
بعد انحناء .

وفي الليلة نفسها ، أرسلت نظيرة تدعوبها غندور إلى حديقة
الكوخ . وكان بينهما ما كان !

{

. القلوب الهائمة عمياء . تتكلم فيها العاطفة ويخرس الهدى .
وقد تهوى بحاملها المتعبين بها عن مكاتبتهم وتلقمهم الإسفاف ،
ويرضى حاملوها ولا يتهيبون الزلق غير مؤمنين بالانحدار .
ولم يكن بهاء خادع القولة في دعوى الهوى . فأحب نظيرة
العياش حباً صحيح النبضة ، صادق اللهبة ، أضحى به على حنين
شاغل يتواثب فيه أبداً جواه العصي . فالفتاة باتت مستدار
تفكيره ، يستيقظ منها على ذكريات بليلة ، ويغفو على حلم رقيق .
وأحياناً لا يغفو وهو من شغفه بفاتنته في سهو وذهول .

وتناسى موقف أبيها من آل غندور ، بل تناسى جاهه وقدره
حيال ضعفتها وهونها . فترامت له مقدودة وأياه من أديم واحد .

لا ترجع كفة على كفة . فلن يلتوى بهاء عن مكانته في ازدواجه
بمن نشأ أبوها فلاحاً في دنيا آل غندور .

واعتزم مخاطبة أبيها فيها . سيقترن بها ويقمها سيدة قصره
وملكة نهيته . ولم يأنف من السير إلى أبيها في كوخه يعاني
صلفه ولؤمه . فالتضحية في الحب مقدورة ، وليشمخ سليم العياش
بأنفه ما شاء ، فلكل امرئ في زمنه فترة من نشوة يتوهم بها أنه
يقبض من السؤدد على الناصية . وسليم العياش وقد بسم له في
ابنته الدهر لا بأس عليه إذا انتشى واستطال .

ولكن قد يمانع سليم في هذا الحب والرجل غريب الطباع .
فتسوقه النشوة على جراح ويأبى على ابنته الطفرة إلى مرتقى
النسور . غير أن بهاء ابتسم ابتسامة الزهو والممانعة تعرض له . فما
ألقى إليها بالاً . أيتفق لنظيرة أن تلو إلى مدرج النبل والثروة
ويحطم أبوها منها الجناح ؟

ولم ينم الفتى ليلته . فالليل ودع في عينيه الصباح . فأقام
بجانب سريرته على قلق . إلا أن عزمه على الاقتران بنظيرة لم
يهن فيه . فالعهد مفروض فيه الوفاء .

وتنفس بهاء ملياً والصبح يكشف عن بلجته الندية . وتنفذ

النور من الكوى الساهرة أبداً كأنها بليت على متناهى الأمد
 بعضى الهيام . ونهض الفتى إلى الماء يبل به جبينه . ووقف على
 شرفة من شرفات قصره الزاهى تبدو له منها بيت مرى المجللة
 باخضرار الصنوبر واغبرار الزيتون ، دمية لعوباً خضلة الميسم .
 غير أن بهاء لم يكثرث للمباهج المشرقة مثله لكوخ شبه حقير ،
 يكاد يغيب فى مشارف السفح بين أنصاب التوت والدوالى
 المتعرشة ، الحابكة بأغصانها وأوراقها السطوح الخضر .

هذا مشوى نظيرة العياش . فشخص إليه بصر الفتى كأنه
 لديه بيت مرى بأجمعها . فما لفته إليها القم المبرقة بانفاس
 الصباح ، المتصاعدة عن يمينه فى جو مصمخ بالطيب كأنها
 درجات الفلك ، ولا استهواه البحر الساجى المنشور على مرأى
 منه كالصفحة العذراء البريئة من خدشة . فلقد وثبت عيناه عفواً
 إلى مدرج فؤاده ؟ ومهد أمله . بعد هنيهات قلائل سينحدر من
 مغناه المنيف إلى الكوخ الزرى ، إلا أنه كوخ نبتت فيه زهرة
 حسن غضير ، كوردة فى أملودها المكسو بالشوك . وفى سبيل
 هذه الزهرة ضحى بهاء غندور بجلالته ، واعتزم مخاطبة صعلوك
 من صعاليك القرية مخاطبة العديل للعديل ، بل مخاطبة الثرى الجاه

والمال المسترحم وقد المسك من الثروة والعزة على خيط نسيل .
 ولم يقو على رد ذكريات سمان فجأت خاطره . كلمة واحدة
 من هذه الشرفة المستوى عليها كانت تجر بالأمس بيت مري
 جميعها وسلياً العياش في الطليعة . أما اليوم فإن حفيد أولئك
 الميامين باضطرار إلى براح القصر ، المتوسد عظماته الخوالى ،
 للمشول أمام أحد خدم القصر المنبوذين ، كالمستجدي الهزيل .
 ومن هو سليم العياش ؟ . . كان فلاحاً في مزرعة ولا يبرح فلاحاً
 في مزرعة . وجل ما بدر منه أنه تجرأ على رفع الرأس وخلع
 النير . حبة ناشرة تحررت من سمط العبيد !

ومع كل ما انتاب بهاء من خجل وهو يوطن النفس على
 الانحدار إلى كوخ سليم العياش لم يستطع إلا الانحدار إلى
 الكوخ . فإنه ليتشفع في قلبه . والمنكوب بقلبه عليل مظلوم !
 ومن عادة سليم العياش أن يبكر في النهوض . فيستقبل
 بغليونه المائع الفجر الأملئ . وغليون سليم من صنع يده ، اعتمد
 فيه ساق شجرة من الآس ظل يجلوها ويحتال عليها في ثقبها حتى
 انتظمت في شبه عصا . ولكنها عصا تشتعل في فم سليم العياش ،
 كأنه لم يبلغ بها عهد القطام . وهي إن لم تفرز في شفثيه تجود

بأنفاسها غرزت في وسطه ، أو نامت تحت وسادته ، في فراشه ،
تنعم بدفئه ، وترتع منه في الحرز الحرير .

ولا غنية في الصيف لسليم العياش عن المصطبة يقرأ عليها منهاج
يومه ، وفي هذا النهار قابلته المصطبة باحتفاء حفي ، بل خيل إليه
أنها تبالغ في الترحيب به وانتصاره على آل غندور أفم نفسه
بدقة من الغبطة نفت يلبسها العذب شجونه ، وزادت في مضاء
شمه بعدما كاد يبلى في أحواله بالفلول .

ودعا بمسند يتوسده ، ويبلّس يتمدد عليه . وأطلق محبة عامرة
من غليونته المشتعل الهامة ، فغام عليه دخان قاتم الزرقة عقد حول
رأسه حجاباً من ضباب تتصاعد خيوطه ولا تماسك . قهى
وتضمحل . بيد أن الحجاب كان يتلو الحجاب ، فلا يفنى حتى
يبعث ، وسليم يقضى هنيهات من البهجة الصامتة طفت فيها على
ضميره المؤنسات الغيد .

وتناسى بقرتيه الصبحاوين ، ومحراثه ، وحماره القبرمي
سيد حمير القرية بلطافة شكله واعتزازه ، وحقلة التوت ، وكرم
الزيتون ، والتين المسطوح على البيدر عرضة لنهش الكلاب ،
وطمع الثعالب ، وأمانة الناطور ، بل هو تناسى خابية العرق

الحديثه الحمام ، سميرته في ليالى الترفيه ، وانصرف إلى التلذذ
 بجاهه النامى ، والاعتداد بمنزلته الصاعدة . بين إطباقه عين
 وفتحها سوف تراه بيت مرمى في مرتبة سادتها آل غندور .
 وابتسم سليم العياش ابتسامة الحالمين بالهناء . وتقدت
 الدجاجات رجليه الخافيتين ، وصاح في أذنه ديكه الأزهر ، ولم
 يشعر بالنقطة ولا بالصيحة وقد غرق في حلمه الوسيم . بلى ، كانت
 تنتفض في المرة بعد المرة بالغليون يده ، كالآلة المتحركة بلا حس .
 فيملاً خياشيمه بالدخان ثم يمجه على مهل ، دفعة تلو دفعة ،
 كالخريص على ماله في مجال الإنفاق ، يؤديه أقساطاً ،
 يمسك وشع .

وغزت الشمس القمم ، واستطالت على السفوح والأودية ،
 وسليم ينعم بضجعتة وقد نسي في حلاوتها نفسه . وتعجبت امرأته
 من غفلته فدنت منه تقول : ما بالك غيرت العادة يا أبا سعيد ؟ ..
 ما رأيك كاليوم تهاون في العدو . نكاد نكون في منتصف
 النهار وأنت متلبد في ضجعتك . أما لذعتك الشمس وحبالها
 تتدلى إليك مع العناقيد ؟

وفوق المصطبة تمتد دالية كالخيمة ، تضحك فيها عناقيد زنوج

تستهوى النهم . فتمرغ سليم العياش في زغير البلاس ، وأجاب بصوت طرى : صدقت ، يجب أن أنهض ! .

واستعان بالله ووقف يصلح من هندامه . فشد زناره على زمة سرواله الأسود ، وانتعل حذاءه الثقيل بغلاظ المسامير ، ومشى إلى إبريق الماء يغسل وجهه ، ونادى ابنته يقول : أسرعى بالمنشفة يا نظيرة !

فهو سيد المنزل المطلق وعلى امرأته وابنته أن تتوفرا على خدمته بطاعة تنبو عن التردد والحجاج ، وحملت إليه نظيرة المنشفة ، غير أنها ما أوشكت أن تدنوبها منه حتى أصيبت بجمود أضحت به لا تقوى على الخطوة . سمر بصرها في سواد مقبل ، وبعثتها لعشة تشفعها رجفة . فصاح بها أبوها : هلا أسرعت ؟ . دهتك العلة !

فلا يزال ناقماً عليها وقد عرضته لمسوخ الأقاويل . وإذا صوت يرتفع عن جانب كريم الغنة يقول : رويدك يا أباسعيد ! فالتفت ولقى مالمقيت ابنته من مباغته . وما كاد يصدق عينيه . يبابه بهاء غندور . وأحس على كره منه بخنوع العبيد تجاه السادة . فالرق في الدم . وباحت شفتاه بصادق حسه : مرحباً بمولانا !

ووثب إلى ابنته يتناول منها المنشفة ويمسح وجهه ويديه .
 وزحف عجلان إلى بهاء غندور ينحني أمامه ، ويحاذر أن يمد له
 يده مصافحاً ، كأنه يخشى أن يمنع عنه بهاء يده . قال والمسرة تلفه
 بأقمتها : ما هذه النعمة يغمرنا بها سيدى ، فيرضى بأن يدوس
 عتبة هذا الكوخ ؟

فما عفواً . لا يزال موقناً أن آل غندور سادته ، وأنه إزاءهم
 من الخدم . فقد استفاق فيه ، وهو منهم وجهاً لوجه ، الطبع
 المؤود . على أن بهاء أحيأ فيه الجرأة المحتضرة بأن وهب له يده
 يشدها ، قال ابن غندور وعينه في نظيرة المجاهدة في استعادة
 سكنتها ، ويده في يد أبيها : منذ عهد بعيد وأنا أرقب السانحة
 لتحيتك في منزلك يا أبا سعيد . وما خفى على أن في الإقدام
 مفاجأة . وأرجو أن تكون مفاجأة سارة بعد تلك القطيعة . كيف
 أنت أيتها الأنسة نظيرة ؟ .

ونظيرة بيت القصيد . وهى حقيقة أدركها سليم العياش وآمن
 بها . ولم تملك الفتاة المقدرة على الكلام . فانتقع لونها وارتجفت
 ركبناها مع كل محاولة منها فى إبداء الصلابة . ودنت من بهاء
 تتصنع السكينة . ومدت له يداً باردة كحجارة الارماس . ونظرت

إليه بعينين خطف الدهول بريقهما وهي تنحنى أمامه شأن أيها
دون أن تسعفها شفتاها بنأمة . فلم تكن على اعتقاد راسخ
بتضحية ابن غندور في سبيلها ، فيكفر لأجلها برفيع منزلته ويبدو
في كوخ سليم العياش الوضع .

وأكبرت فيه الصدق والوفاء . وجاءت أمها ترحب بالسيد .
قالت وهي تكاد تلتصق بالأرض بين يديه خشوعاً : أوليتنا شرفاً
لسنا به حقيقين ياسيدى . هذا منك سماح ونبل ا .

فراقه المديح وزاد في اطمئنانه . وفتحت له حجرة على بسطة
من الإتيقان في زينتها ورسومها . هذه قاعة الكوخ ، وإنها من
الكوخ لأشبه بالحرم . فلا يدخلها سوى كبار الضيوف . ومن
النادر أن يأوى أرباب المنزل إليها . فالباب مقفل ، لا يدور على
مصراعيه سوى الترحيب بنزيل كريم أقبل أو سيد رفيع أطل .
وتولت نظيرة بنفسها أمر الحجرة المزركشة تشرف على
إعدادها . فطرزت لها الوسائد ، وزانت الجدران بالرسوم . وفي
كل صباح تجمع طاقات الرياحين لترصيع صدر القاعة بالريان
الضحوك . وسخا سليم العياش على قاعة كوخه ببساط دقيق
الصنع حاكته أيدي الناسجين في معارض تبريز ، وجمرايا بين

مستطيلة ومستديرة اقتعدت أكباد الجدران كالفراشات في أطباق الزهر . وعكفت نظيرة على وشمى رسوم من الطيور والضواري في ستائر من الخمل مسدولة على نوافذ ثلاث ، فجادت على الكوخ بمسحة من نعمة وخلعت عليه فضلة من أناقة . وفي صدر هذه الحجرة المزركشة ، الثائرة بوسامتها على دمامة الكوخ استقر بهاء غندور . وجلس سليم العياش بعيداً عنه تقديراً للمكانة وإمعاناً في التكريم .

وجاورت الأم والابنة الباب تناهياً في لين الجانب ، وإقراراً بسيادة رب المنزل . وألقى بهاء نظرة على الرسوم المألثة الجدران . ووقفت باصرتاه عند رسم وضاء فجاد عليه بالبسمة وقال يشير إليه : هذا رسم العزيز سعيد . انى لأعرف سعيداً معرفة محكمة . كنا في عهد الصبا صديقين . ويوم رحل إلى أميركا لم يشأ أن يبخل على بتحية الوداع . جاء إلى يقول : « أنا في رحلة طويلة لست أعلم أعود منها أم لا أعود . ولقد رأيت قبل ركوبها أن أهرى يدك . فما أنسى أنك كنت رفيقي في الصغر . وإني لمتقي الواقعة بينكم وبين أبي مادمت لا أصطلي بنارها . الوداع ! » . ورام مصافحتي فأبيت إلا أن نتعانق وأنا أقول : « إلى اللقاء ! »

حدثوني عن سعيد . أياكون على توفيق ؟ .

فرشحت أعين الأم والابنة بنضيف الدمع . وبلغ سليم العياش ريقه حرقة على هجرة معقد أمله . وساد الصمت الحزين جو الغرفة الندى بذكريات جلوة مرة . فلقد أجاد بهاء حبك المقدمة بطلاقة خالية من التكلف البليد . فكأن سليماً من أهله وأنسابه ، أو صديق آل غندور الحميم . وهذا الازدلاف خلع على المجلس روح التصافي . فشر الجميع بأنهم في حلقة من المودة والأنس لا تكدرها نقشة من ضغينة . وشق سليم العياش الغشاوة المضروبة على الأفواه فقال مجاملاً : نحن نأكل من خيركم وخيره ياسيدى ! .

فابتسم بهاء بسمة نافية يستدرك بها الإفراط في المسامرة وقال :
العفو يا أبا سعيد : الخير خيركم . أى فضل لنا في نجاحكم وقد
حالت الأيام دون استمرار الإلفة . أوافقك سعيد بالمال الكافى ؟
— فى مطلع كل صيف لنا منه دفعة . ولقد أنفقنا الدفعة
الأولى على نظيرة كى ترسخ فى العلم . هذه رغبة سعيد . فقد أصر
شقيق الفتاة على تعليمها كأنه يجهزها لقد ربيع . مع أن ليس لمن
كان مثلنا أن يستبحر فى المعرفة ولن نعدو فى دنيانا الحلل والحراث !

فحانت من بهاء لفته باسمه إلى ابنة سليم العياش وقال مبسطاً:
ونظيرة يرقبها غد ربيع يا أبا سعيد !

فهز سليم العياش برأسه كافرأ بما يسمع وقال بسخرية مرة:
وأى غد تليق به؟ .. ولدت مثلنا للشقاء وستفنى مثلنا أيامها في شقاء.
فليس يرقبها ملك ولا أمير. شاء أخوها أن تملك نزرأ من عرفان
فلم نخرج على مشيئة أخيها. وهذه النتافة من الاطلاع لم تزد في
قدرها ولم ترفع من مكانة أهلها. نشأت في بيثة فلاحين. فالمال
المنثور في تعليمها وقع على صخرة. فلا نفع لنا منه !

فأطرقت نظيرة على خشية وهي تسمع أباهما في مقاله النائي
الחדش. ولملت الأم نفسها كمن يحذر اتقضا الرزية.
وأدرك سليم أنهما فطنتا إلى مراده فقال إلى إقصائهما عنه مخافة أن
يدحض موقفهما منطقه. قال مندداً : أين أتما عما يجب لسيدنا
ومولانا ؟

فنهضتا معاً كأنهما تملكان عصياً واحداً. فاعترض بهاء.
دعنا من الواجب يا أبا سعيد. أنا منكم وفيكم. لماذا الإزعاج ؟
فحامت بسمه صفراء على أسارير سليم العياش المتقلصة
بمقد وقال برغبة في الإيلام : ليس لأمثالنا الفلاحين أن يجالسوا

السادة . فلئن أوليتنا هذا الشرف الضخم بالجلوس بيننا فلن
يحملنا الدلال على نسيان طينتنا . نحن خدمكم وعبيدكم . إن
وداعتك لا تمحو ضمتنا !

فصاح بهاء وقد رضت ضلوعه اللهجة المنفضة لؤماً : أبا سعيد
لقد أسرفت !

فما تبدل موقفه . قال : نحن جماعة الفلاحين لا نجهل
مستوانا . فما تدفعنا خسة أحسابنا إلى الطمع في سلوك طريق
تتعب فيه أقدامنا . فمن تعود الظلام يعمش في النور . ومهما
نبلع من الرقي فالعبودية تلفنا أبداً بأطمارها . فإننا لعل الأبد منكم
ذلك الشعب الزرى !

فأحسها بهاء عضات تغرز في كبده وتنهش صدره . وما تمالك
أن صاح بغيط فائر : أتنقصني يا أبا سعيد ؟

فأنحنى أبو سعيد حتى كاد جبينه يلتصق بالأرض . فهو يجيد
تمثيل كيد . قال براءة الذئب المتبطن جلد الحمل : أأجرؤ
على السبة وأتنقص سيدى وابن سيدى ؟ . . انها لقحة أصون
عرضى من فحشا . من أنا كي أقدم على الغمز من جلالكم
ولحم أكتافنا من خيركم ؟ . . وماذا كنا لولاكم ؟ . . هبابة

في صحراء . لا تخدعكم فينا إيماضة من عصيان ، بل نشوة من دالة . نحن إذا مشينا العمر على رؤوسنا في خدمتكم فإننا لنقف بعيدين عن وفاء الحثالة من دقائق أفضالكم علينا !

فتوائب دم بهاء في شرايينه حانقاً برماً . ما هذه المعاندة العاتية ؟ . قال الفتى وهو يغص بكلماته : أراك لا تبرح على نفرتك منا يا أبا سعيد . ألا رفقاً بحشاشتك . أنا ما جئت إليك لنبش الماضي الدفين . تلك الصلات المبتورة أقبلت أربطها وأحكمها . بهاء غندور يريد أن يقيم منكم قرابة . أيرفض سليم العياش قرابة آل غندور ؟

فكاد ذلك الفلاح الطموح الوقاد العزيمة ، يطير لفرط بهجته . وقع على ما يتمنى . إلا أن شهوة الانتقام المتغلغلة في أعماقه أخفت فيه كل مسرة . قال وفي مطاوى صوته سخر المرتاب : وهل من قرابة تربط العبد بالسيد ؟ . أين بنو العياش من آل غندور كي نحلم بهذه الطفرة الوعرة المرتقى ؟ . رأفة بحقارة الرخو الجناح يا سيدى !

— الوعر يجد من يذل وعورته يا أبا سعيد !

— لست أفهم أيها السيد !

— ما قولك إذا طلب منك بهاء غندور أن تعقد له على
ابنتك نظيرة ؟

فتصنع سليم العياش الاضطراب وصاح : أيها السيد !
وانقلبت ملامحه كأنه يرتعد في عته . وحسبه بهاء صادق
التأثر وفي بليغ البشرى ما يضعضع أحياناً ذوى النهى . وخشى
الفتى أن يكون صدم والد نظيرة في مكن إدراكه فنهض إليه
يمسك منه بكتفيه ويهزه بشدة قائلاً : أبا سعيد ، ما أنا بالملازم
ولا الأمر بالبعيد التحقيق . أريد ابنتك زوجاً لى ، أفهمت الآن ؟
فتظاهر سليم العياش ببذل الجهد في استعادة الصواب وقال
مستوخماً بارتباك : أتريد نظيرة للزواج ؟

— هذا جل ما أطمع فيه يا أبا سعيد !
فبدا من رب الكوخ أن يتنفس مرتاحاً وقال : هذه نعمة
السماء تحمل علينا . ما حسبتنى أحيا إلى زمن يعطف فيه سادتى
على خولى وينهضون بى إلى موئل النباهة ، فيورق عودى
وتسمو عشيرتى ولكن حظى ، لمن الله حظى يا سيدى ، خير
مسعنى . جئت بعد الأوان !

فصاح بهاء : بعد الأوان ؟

— لا سبيل إلى محو المكتوب أيها السيد . مصير نظيرة

بات مقدوراً عليها !

فأرتج على بهاء وتولاه الشدة . ماذا يسمع ؟ . . . من سبقه
إلى نظيرة ؟ . . . لم تطلعه الفتاة على النبا الصافع . أيهذى
أبوها ؟ . . . وغالب الفتى نفسه على النطق . فالموقف لا يميز
السكوت إقراراً بالهزيمة . قال بصوت يكسفه ذل الخيبة : ومتى
أبرمت مصير نظيرة يا أبا سعيد ؟ . . . أجاذ أنت فى ما تعلن ؟
فأجاب أبو سعيد . وعدت بنظيرة ابن عمها وهو يركب البحر إلى
المكسيك . وابن عمها فتى هام كليل ، ولكن أين شأوه من
خطر بهاء غندور ؟ . . . لو كنت أعلم أن غدها سيرفعها إلى
درجة النجوم لأمسكت عن وعدى ريثما يطل فتاها . غير أن
يقينى بأن العبد للعبد أهاب بى إلى وقفها على ابن عمها . وأنى
لمثل أن يرجم بالغيب كى يعلم أن البومة قد يكتب لها الثواء فى
حلقة الشواهين ؟

وشد الفوز بأبى سعيد صعداً حتى كاد يجاوز مسبح الغمام .
والتهب جبين بهاء غندور وذابت فى الفتى بقية من شموخ .
ولو أوتى سليم العياش السمع الحاد لوقعت فى أذنيه قضضة

حنجرة ابن السادة . وتكلم قلب بهاء الخشيان النائح على شفتيه
 فقال : أبا سعيد ، على رسلك . لا تجازف بمستقبل ابنتك . أنا
 أحب نظيرة وأراها جديرة بحبي ، فلا تمنعها عني لتشار لنفسك
 منا . ما جئت إليك بثروتي ولا بجاهي ، بل بقلبي . من يخاطبك
 ليس ابن غندور . ابن أعدائك ومضطهديك ، بل من عظمت
 لديه ابنتك فأقبل ينزلها منزلتها . وقعت من نفسي موقعا أثيرا
 فلا تفجع نفسي بها !

ونطق فيه هواء يستغيث . ولكن ظلامه الحب لم يجد منفذا
 إلى الرفق في القلب المغلف بأحقاده . فالناقم على السادة ظل
 موغلا في نغمته . قال متاديا في التهشم : سيدي ، لا تحاول
 إقناعي بأن المطية تصلح لامتلاك الأعنة . فالحكموم عليه
 بالعبودية لا يملك القدرة على رفع الرأس والنير في رقبتة والسوط
 في قفاه . نظيرة ليست جديرة بك . هل رأيت الأرمد العين
 يجرؤ على اقتحام وجه الشمس ؟ . . . أي أضحوكة يشوقك أن
 تثير في القرية ؟ . . . دعنا في انحطاطنا واحرص على رفعتك
 يا سيدي . لسنا نريد أن تصاب لأجلنا بالشين ، فيقول عليك
 من لا يليق بأن يكون موطنًا لنعليك !

ولكن بهاء لم يتراجع . قال : لا قدر عندي لأقاويل الناس
 يا أبا سعيد . فلست أراي أهون في اقتراي بمن حبست عليها
 جنائي . مالي ولمن ندعوهم بشرأ . هؤلاء قوم تطربهم المناعي
 وتبهجهم الرزايا . يشوقهم أن يبصروك أبداً في ماتم ، تقضى
 أيامك في نهلة البؤس وكسوة الحداد . أبا سعيد، ما جرنى إليك
 سوى حبي لابنتك ، فلا تكابر ولا تنتقم . لن أنخر على مسمعك
 بكريم محتدى ولا ثرى مالي ، بل ألقى بين يديك نفسى عاطلاً
 من كل وفر وجاه . أتعجبنى حقيقاً بمصاهرتك وتعقد لى على
 ابنتك نظيرة ؟

فطرح صدر سليم العياش بأوتاره . هذا أوان الانتقام .
 فالضحية كشفت له عن مقتلها ولم يبق عليه إلا أن ينحر ويتمتع
 برؤيتها ترقص في دمها وتجود بروحها . قال ينفث لؤمه : أيقنت
 أنك شديد الإخلاص لابنتى أيها السيد بهاء . ونظيرة ريحانة
 ندية ، عطرة الفوح ، غير أنى وعدت بها ابن عمتها نصيراً ،
 ولست بمن يعد ويحجم عن الإنجاز . أنت حقيق بأكل فتاة .
 ثم إن بيتاً تصاهره ترفعه إلى الجنة . ولكن جئت بعد الأوان .
 لن أنقض ما أبرمت . مطلبك منى محال !

وأعلنها كلمات هادئة إلا أنها هادئة . فارتعد لها بهاء غندور
ولم يدر كيف يتماسك . أطلب ابنة سليم العياش للزواج
ويخيب ؟ . . . إنها لقضيحة ! . . . وعاند في الانهزام . فغالب
نفسه على القول وشفته تلحذان ابتسامة مائة : سليم ، بالفت
في الانتقام . كفى . جاوزت في كيدك شفاء الحزازة . حسب
ابن غندور أن يكون سعى إليك طالبا ابنتك للزواج . ففي هذا
الإقدام تضحية وافية . أيروقك أن تستشير ابنتك في مصيرها ؟ .
ابنتك مالكة رشدتها ، فلا تعجز عن اختيار من تؤثر لغدها !
فهاهنا سليما هذا السماح . أبيع لابنته اصطفاء رفيق حياتها ،
ومتى كانت الفتاة تنخب أثيرها ؟ . . . وزار سليم العياش وهو
يلهث : ابنتي عبدتي أيها السيد . وكلتي فيها كلمتها ، ولا محيد .
ما ضم منزلي ولن يضم من يعاندني في رأيي . نظيرة ليست لك
ولن تكون . من المحال أن أرفها إلى عدوى وابن عدوى . أتم
لستم منا ، وأعناقنا تتعب في التفاتنا إليكم . يؤسفني أن أردك
خائبا ، إلا أن الموقف يفرض الصراحة . لا تطمح في ما تطحن
أضراس سواك . نظيرة لابن عمها نصير الهاني !
وتفجرت حفاظ سليم العياش وتكشفت نواجذه . وود بهاء

الاعتكاف على معالجة العلة حتى الشفاء فمأنت نخوته . فلم
البقية الباقية من أفتة المهشة وانصرف وهو يقول بوقار الحليم :
عفواً عن إزعاجي إياكم فيما حسبتة على متناول يدي . أرجو
لنظيرة الرفاء والهناء !

ولم يلتفت إلى سليم العياش . وما رقب أن تعود إليه نظيرة
بالقهوة . فالصدمة ألهمت أعصابه فانتصب مكرهاً على قدميه
شاخصاً إلى الباب يروم الفرار . وأنف أن يمد يداً لسليم بمصافحة
فالسيد عاد فارتدى بزة السيد . وما سليم العياش غير عبد نكد .
ومشى بهاء في الأرض بأشرو وجبروت كأن الإهانة لم تنزل به
إلا أن هذه الخيلاء لم تهد من حيل والد نظيرة . فرافق سليم تيه
الفتى بعين يضحك فيها الخبث المنصور . فالتعلب قهر الأسد .
وصبر بهاء على الإخفاق وهو يبرح الكوخ . ولكن الصبر وهي
والفتى يجتاز أزقة القرية . نخيل إليه أن بيت مري على إطلاقها
تنظر إليه بإعراض وتسد أفتها عنه . ما دعاه إلى هذا السفال ؟ ..
نسريهوى من وكره إلى مرحاض الخنفساء والخنفساء تركله ،
كأنها على نقتها وانحطاطها أرفع قدراً من سيد الجو الأثيل !
وأصرع بهاء في الاحتجاب عن كل عين ناقماً على قلبه .

لقد أهلكه قلبه . ونضح جسده بعرق الخيبة البارد كأنه مشرف
على منيته . وكاد بصره يتيه عن طريقه . وفي قصره المشمخر
انزوى بأسفاهه كناسك زاهد في الدنيا . وألقى رأسه بين يديه
واستسلم إلى آلامه . فهو غريق الخزية . أيشمخ عليه خدمه
حتى في سعيه لرفعهم إليه ؟

واعتزم هجر بيت مري . سينأى عنها إلى حيث ينسى .
ولكن هل ينسى والإخفاق زاده شغفاً بنظيرة العياش ؟ . . .
لا ، إنه لعاجز حتى عن التناسى . واختلج في حيرته . لا يستطيع
أن ينسى ولا أن يتناسى . إذن يجب أن تكون له نظيرة .
وستكون له على كره من أبيها . فما سليم العياش غير حشرة
تسحقها دعة . وحشرة من هذا الطراز ليست عقبة دون
العزم الصدوق !

٥

بيت مري على كفران بما تسمع . فإن هذه الرواية الطالع بها
عليها سليم العياش لا تلقى فيها مسكة من إيمان . أيريد بهاء غندور
نظيرة للزواج ويخذه أبوها ؟ . . . إنه لطيش وحق ، بل هو

في الجنون فحولة . فأى أبله هو سليم إن يكن رفض حقاً زفاف ابنته إلى سيد بيت مري وأغنى غنى فيها ؟

وأبت القرية التصديق . بهاء غندور مع هيامه بالفتاة لن يهون ويطلب أن يعقد له على نظيرة . فالقشاعم لا تنحط إلى درك الهررة . ولكن القرية أبصرت صباح أمس بهاء غندور يؤم منزل سليم العياش ، والقرية كلها عيون ، وهي واقفة بأجمعها على ما بين بهاء ونظيرة من مودة ، وعلى ما يبطن سليم من كره لآل غندور . فقد يكون بهاء طلب ، وسليم مانع . هذا تشفياً وانتقاماً ، وذاك إجابة لنداء قلب مستهام .

على أن التردد في التصديق لم يقف ببيت مري عن لوك الإشاعة . إنه لفظٌ غبيّ سليم العياش ان يكن نبذ ابن السادة الميامين . وعقدت القرية مجالسها تتجاذب الحكاية ، فتصدقها ثم تنكرها ، والشر الأوفر مال إلى الإنكار . ولكن سليماً لم يتعوّد الاختلاق ، ولا يرضيه أن يجازف بابنته في مضطرب الألسنة . فلو لم تكن الرواية صادقة لتحامى إعلانها .

واتقد الفضول في الخواطر ، وهام الجميع بالاستطلاع ، فقالوا على خدم القصر بمطرونيهم الأسئلة . أصبح ؟ ...

طلب وخاب ؟ . . . إن سليماً لمعتوه . أتهبط عليه النعمة ولا يحملها منه في العنق ؟ . . . جنى على ابنته ، لا أقبلت له عثرة ! والناس يديرون ألسنتهم على لولب ويتجهون بها في مهب الريح ، فهم أبداً بجانب من يخاطبون . واطمأن الخدم إلى ما يلقي في مسامعهم من امتداح رب القصر فجادوا بينات الصدور . فالسيد بهاء محتجب منذ يومين في حجرتة ، لا يأنس بطعام ولا شراب . أما الإشاعة الهادرة فنفضوا أكتافهم وشفاهم منها ولم تنبض آذانهم بالنبا المعتل الإيمان .

واحتجاب بهاء في قصره ، وانقطاعه عن مأكله ، شغفا في رواية سليم العياش ، فهي تموج على صواب . وإلا فلماذا يعتصم بهاء غندور في حجرتة على كمدة لا يتقى الجوع ولا يتفادى الوحشة ؟

وتعاطم اللفظ ، ونال منه بهاء الشماتة والمذمة ، وانهت القوارص إلى الفتى تستبيح نطق عزلته فأمعنت في إيلامه . لقد درت القرية ، سليم العياش يتباهى بفوزه في الأزقة والدكاكين .

وسليم وقف في حانوت صديقه نادر الصراف كعمود الإعلان

في الساحات العامة . ولقد كان عموداً ناطقاً كالمذياع الجدير
لا حاجة به إلى إتعاب العيون في نشر آياته . قال : غيرتموني
حبه لابنتي وسخرتم بي ، وهو يحب ابنتي ، وهنا إلى يطلبها مني ،
فماذا لقي ؟ . . . هل علمت ما لقي ؟ . . . كان نصيبه مني الصدّة
والقطيعة . فمنعت عنه نظيرة بخشونة وصرفته بامتهان زري !
وتنقص سليم العياش السادة . هؤلاء قوم تنبذهم في معتقده
المروءة وقد لجوا في الغواية ، واحتشدت القرية حوله تصفي إليه
في شتائه . والقرية تجمعها قرعة طبل ونفخة مزمار ، بل هي تلتقي
على ضحكة وصيحة . وساءل القوم بعضهم بعضاً : ما بال سليم
يمخرق ويربد ، هل جنّ ؟

فوافقهم الأيام بما يجلو الشك الحائم ، سليم العياش سليم النية .
فالحق ما يقول . وخلع قلب بهاء أن يفضحه في فلاحيه وخدمه
من كان من فلاحيه وخدمه . فضاقت به بيت مري وتراكت
في عينيه ظلاماً ، ومال إلى الهجرة يصون بها وجهه . ورحل عن
القرية إلى مزرعة له في البقاع فتصدّر ذلك البساط المبرقش ،
المتد على رحابة كأنه يفتح أبداً ذراعيه للنزير على مداها .
ويعن المحراث في خدش صفحته الملساء ، ويشق جبينه بالفضون

العراض ، فيحيا بنخدوشه وينتفش بغضونه ، ويأكل الحبة
فيردها عشراً . يا للمديون المغالى فى الوفاء !

ولكبار الموسرين فى لبنان فسحات فى هاتيك السهول
الخصاب ، الهائثة بالاستقرار فى ذلك المسيل العريض كأنه
رحمة الله . وحفت جنباته جبال ضخام ، تكاد تحك بشواغحها
الرهيبة الجلال عين السماء . جبل الشيخ من ناحية ، وصنين
والباروك من ناحية ، كالحرس الأمين تبادر السهل بالتحية ،
وترد عنه العوادي الصلاب .

وآل غندور يملكون فى البقاع مزرعة سمحة المجانى ، مؤنسة
الرحاب . شيدوا فيها داراً شرقية اللون ، بأعمدة وقياب وسطوح
وأحواض . وسطعت الأناقة فى المغنى الرخى فبدا كالبسمة فى
اليوم الجهم . وفى هذه الدار يقضون شطراً من فصل الربيع
ومطلع فصل الصيف ريثما ينتهى الحصاد وتصفى الغلال . وبهاء
فزع إلى داره المنتحية فى البقاع جانب العزلة للخلاص من
استكلاب الأنياب ، إلا أنه إذا نجا بأذنيه من المطاعن فما نجا
بقلبه من علة الهوى . فالحب وقد أدمته الصدمة هاج واحتدم .
ووطن بهاء النفس على الكفاح ، فلن ينام على الجرح المديد

النمرة . سيعود إلى ابنة سليم العياش ويحدثها عن جواه طالباً إليها الرفق بلبه . فإذا أبت اختطفها وهو ليس بالعاجز عن استلاها من حضن أبيها ، ولم يجد دواء للبرء من سقمه في سوى جذب نظيرة إليه . وقضى في البقاع سبعة أيام على قلق وجزع تراءت له سنة طويلة من شقاء نهيك ، فإن فجيعة بابنة سليم العياش أرمدت عينه .

وجاهد في خلع نظيرة عنه فاستمسكت بجنانه وهي نبضة قلبه وزاد خاطره . فلقد طغت عليه حتى بات منها خفقة . وضايقه هذا الاسترقاق ، بيد أنه عجز عن تحطيم النير . ولم يكن منه إلا أن حنا رقبته للقدر السليط مكرهاً على مصيره ، فلا بد من متابعة الطريق !

وأدهش ذهوله خدمه ، فالحياة خبت في المشعل الوقاد . كان بركاناً مضطرم اللهب فأمسى جمره تصير إلى انطفاء وتحاموا الوقوف بقربه وقد هالم جموده واكداده ، ولولا أنهم موقنون أنه بهاء لأنكروه . فهو في كآبة الخانع المكسور العين . وملّ عزلة البقاع وكرهت نفسه الالتواء على نفسه فعاد إلى بيت مري وقد صمم على معالجة ألمه ، سيحطم بكل سلاح تطول

يده سليما العياش المنغمس في أقبح اللاؤم . ورأى في سليم عديلاً
في الخصومة يجب أن يقلّ من شوكته ويحطمه ، وإن لم يعمد
فيه إلى الإذلال والتهشيم ففي أى مهواة تغور عزته ؟

وآثر أن يضرب الأب في ابنته ، حيث وهم أنه سيد أمر .
فيفصل نظيرة عن أبيها بما له عليها من سلطان مائع . ولقد رسخ
في يقينه أن الفتاة لن تقف منه موقف الحشنة ، ستقتفى خطوه
وهي المنتشية بحبه وتطيعه في رغبته لا تقيم لعناد أبيها وزناً ،
وأبوها ينحرفها في نضرة الأمل ورهافة الحس .

وأنهى إليها أن موعدنا الليلة ، في حديقة الكوخ ، فالحديث
جدّ خطير . وابنة سليم العياش في غمرة الشجن ، تأكلها حسرتها
ولا تجرؤ على إفصاح . فعضت جرحها وصبرت على المحنة ،
فهي مجبرة على احتمال النكبة ولأبيها عليها سلطان الطاغية .
ومشت في الأرض صنماً كثيباً يتأجج في حنا الضنك فيطعمه
كبد ونضارته ولا يتفوّه بشكوى .

ونظيرة وعت كل ما نثت أبوها من ضغن وثار فيه من غلّ .
وما ندّت عنها تضحية بهاء غندور وسعة حلمه . فقأ في عينه
سليم العياش الشتيمة فأدّرع لها السماحة ، كأن لم يبلغ الإزراء به

مبلغ الهون . وما لان جانبه ، واستساع دلال الأب الجافى ،
 لسوى إرضائها هى ، نظيرة ، القاعدة منه فى بهرة الضمير .
 وأوجعت الفتاة المكابرة فى أيها ، إنها لمكابرة فى الضلال .
 فليس لأشباه سليم العياش أن يرقبوا الحظوة العارضة ، ولكن
 الحقد الداعر مال بسليم عن استدرار عطف الزمن . وكادت
 تثب عليه نظيرة تمزق عن عينيه غلّه وتقيمه على هدى ، إلا أن
 الجرأة أفلتت منها ، فهى عبدة أيها . وهالها جور القدر ، نشأت
 فى الحضيض ولن ترتقى عن الحضيض . فالرفعة حرامٌ عليها ،
 إنها لتستوى على زخرف من العلم والرقى ، ولكنها أشبه بيلبل
 فى قفص ، طائرٌ صدوح إلا أنه أسير . ليت لم يكن له شذوه
 وكان طليق الجناح !

ولا تبرح تتمثل بهاء فى ضراعتة إلى أيها وتكبر منه الحب
 الملوى بالنبل عن معقله ، وتتخيله وهو ينصرف وقد استعاد وقاره
 وسؤدده فتروعا فيه العظمة المطبوعة ، والمنعة المستهينة بالفلول
 والحدوش ، هذا سيد ابن سادة . ولقد لمست فيه أثر الصدمة
 مع استعصامه بالأنفة . بدا لها لوحاً محطماً ، أشلاء طرحى
 تنزودماً ، إلا أنه ستر جراحه بالرزانة الجليلة الخطو ، المزهوة

العين . وأحست الفتاة بمضض يعصر قلبها ويطنى نور الأمل المشرق على غدها ، فأمسكت بالجدار المستندة إليه لئلا تتساقط ركائماً ، بعضها فوق بعض ، كأنخائب في منية ظلوم !

ولم تستوضح أباهما الباعث على ارتياد بهاء الكوخ ، ولم تكن بحاجة إلى الاستيضاح . ولكن سليماً أقبل ينشر على مسمعها أنباء البطولة كأنه يعود مرفوع اللواء من غزوة دسمة الغنيمة . قال بذلّ ساخر مستفيض : « جاء المقيت يستجدي فألقمته الخيبة » . لست أدري بأى فحة تجرأ على التماس ابنتى منى وهو يعلم أنى أشحّ عليه بالبلغة !

وضحك فحكة لو سمعها بهاء ورأى سليماً وهو يؤديها لنزلت به الرعدة وتعثر منها بهولها ودماستها . وخبت الضحكة لتذيع القولة : أصليت جده وأباه الحرب العوان وسأحرقه بنارهما . نظيرة اسمى من أن تكون سلعة : لقد حاول أن يشتري بها سكوته عنه فضل الطريق . لا وفقه الله !

واستطار فيه العجب . وارتفعت امرأته وهى تسمع منه هذا البيان الطائش ، المتفخ جهلاً . قالت وقد اتسعت عينها لفرط جزعها : طلب منك ابنتك ورفضت ؟

فضرب برجله الأرض وصاح بجفوة : رفضت وكسفته ،
 أيدهشك ما بدا مني ؟ ... والله لن أجود عليه من نظيرة
 بشرة . فإن مصاهرته لنا ضربة قاضية علينا . فالقرية بأجمعها
 تسخر بنا وتقول : « ما ابتسم بهاء غندور لسليم العياش حتى
 تناسى دعوته إلى الكفر بظلم السادة ! ... » . وأنا رجل قضيت
 عمري في مناوأة هؤلاء القوم على صدق في العهد ، ورسوخ في
 العقيدة ، فهل يجمل بي أن أنكث عهدي للين طارئ بدر من
 ابن الظالمين ؟ ... إنه لضعف في الخلق ما تعودده سليم العياش .
 نظيرة لابن عمتها ، فهي من نسيجه ، لا لابن غندور الغريب
 عنها في لونها وطينتها !

فوجئت الأم ليست تقوى ازاءه على الحجاج ومشيتته لاتنقض .
 إلا أنها وقد تبينت في الأمر معادة ابنتها صاحت فيها المجازفة :
 ما بك اليوم على اضطراب في الرأي ، أ يكتب لابنتنا أن يطلبها
 ابن غندور ولا ترضى به صهراً ؟ ... ربي ، هذا عمي وحنون !
 وامتدت يداها إلى شعرها لتحلجانه بغيظ . عناد زوجها مصيبة
 عضوض . فمن الظلم الإشاحة عن النعمة الهابطة ولم يكن يرتجى
 منها حتى ومضة عليلة . فهاج سليم العياش وتفاقت فيه الغضبة

ومشى إلى امرأته بقبضة مرصوفة . متى استنشرت الخنفساء؟..
فوقفت ابنته بينهما تصيح : وماذا تفعل ؟ ... أتروم ضربها وما
أنت نكراً ؟

فأمضت تدخل الابنة أكثر مما أوجعه اعتراض الأم . وصرخ
بنظيرة صرخة كالعواء وهو لا يكاد يتأسك : يا لعينة ، أنشاطرينها
الميل والهوى ؟ ...

ولكها لكمة لوتها على أمها ، فانبطحت الاثنتان في الأرض
على نشيج كظيم . وفارسلیم العياش فكاد يمزقهما بأسنانه وأظافره
ويدوسهما بنعليه . وهدر فيه التهديد الكاسح : والله إن تتلفظا
بكلمة تعارض رغبتى أشعلت فيكما النار : لا يبلغ بكما الحق إلى
معاندتى فى ما أقر من تدبير . بهاء غندور اسم محرم عليكما
أعلانه ، حتى التفكير فيه . وإنى لأرتكب جريمة ترويهما
الأجيال بعدى إذا خطرت لكما الاستهانة بما أنهى عنه !

وبدا فى سحنة إبليس . وانقطع بكاء الأم والابنة حيال
الوعيد الدميم . وجمعتا بعضهما إلى بعض كأن إحداهما تذوب فى
الأخرى . وما ارتدت عنهما سليم الا وقد أيقن أن أنفاسهما جددت
فى صدريهما ذعراً . فانطلق عند ذاك إلى ساحة القرية يذيع فيها

حكاية ابن غندور ويخفف باذاعتها من نقمته ونزقه .

واحتجبت نظيرة وأما في الزاوية تفوصان على دمع وزفير .
أى جنون اعترى سلباً فأزرى بالطالع المأمون ؟ ... وجاهدت
نظيرة في الإمساك بقلبها الجامع وانحنى على أمها تؤاسيها قائلة
بصوت مخضّب بالأنين : لنزل على مشيئته . فهو السيد المطاع .
حرام أن تثير بيننا قلقاً يتغص أيامنا فيشمت الناس بنا !

فأدهش الأم في ابتها هذا الهدوء النبيل . أدرعت الصبر فيما
يضيق الصبر عن البلية . وضمت أم سعيد هذه الابنة إلى صدرها
تكبر فيها حكمتها وتقول : بورك فيك . أجل ، هو السيد المطاع ،
فلن نعصى له أمراً . وهب الله لك الجلد على احتمال المصاب !

واشتد منها العناق متحدتين في أساهما ، ساهيتين في نكبتها
وانحنى إحداها على الأخرى كالزراع الجيم ، بل كالأماني
المصروع بعضها فوق بعض في ميدان الجهاد المقهور . فلا حركة
ولا نبسة ، ولا تفكير . ان هناك إلا لوعة سائدة ، سادرة ، تلج
في البحران ، وينكأها الجريض !

٦

نامت بيت مري وقد أتعبها كفاح نهارها في الحقل والكرم
والغابة . نامت بملء أهدابها كأنها صريعة النشوة ، فلا غطيظ
ولا قلبة ، كالراتع في غمرة من البلمس .

وفي سكينه هذه النومة المائعة انسل بهاء غندور من داره
على جناح الطيف يأبى أن تشعر به حتى الأرض الدارج عليها .
وأسفنته الحلكة في الاحتجاب فما وقعت عليه عين . وإذا به
يقفز سور الحديقة في كوخ سليم العياش الطروب اللهيف .

وما أبطأ اللقاء . فانطلق إلى الفتى خيال يستوضح بحذر : بهاء ؟

— إني لهو !

قامتدت اليدان إلى اليدين تتعاقد ناعمة بعذوبة اللقيا . هذه
نظيرة أقبلت على موعد . وانحنى بهاء عليها وشفتهاه إلى شعرها
يستنشق فغوة الطيب ولا يجرؤ على زعمها في قبلة . فهو في خشوع
التقى . وغار حفيف الكلام وعلا خفقان القلبين كأن في القلبين
أجراً صامتة ناطقة فيسمع بأذنيه دقات قلبها وتسمع خلجات
له . وهوت عن الأكتاف أعباء الزمن الباغى وتأجج الحب

الصُّراح في شعلته العذبة الضرام ، الوهى . وود العاشقان لو
يطول الموقف وهما من الصبابة في الذروة . ولكن بهاء أقبل لأمر
أبعد شأواً ، ليس الضم منه إلا بعض اللذادة . فقد جاء يستأثر
بنظيرة كلها . فيرشف الحمرة ولا يبقى في قرارة الكأس ثمالة .

وتمتت شفتاه وهو يناضل في سلاخها من الشعر المطار :
نظيرة ، أبوكِ يابى أن يجمع بيننا . فهو يريدنا على شقاء . غير
أنه لن يفوز بمبتغاه . سنعيش جنباً إلى جنب ، بهناء . وقد
حبوت إليك أدعوك إلى اللحاق بى ، أكونين للحاق بى على أهبة
فأجابت بصوت رخيم غريد : أنا فى سبيلك أجوب الدنيا ؟
— لنذهب إذا فالجمال فسيح للفرار واتقاء نعمة العيون . تعالى !
وأمسك بيدها يشد بها للرحيل . فاعتضت وهى تحاول أن
تنزع منه يدها : إلى أين ؟

— إلى حيث يعقد لبعضنا على بعض فأقترن بك الساعة
ونحقق مشتى القلبين !

— وأبى ؟

— مالنا ولأبيك . لن يرضى أبوكِ . على أنه لن يحجم

عن الرضا وقد أوثقنا الزواج !

— أيروقك أن أبرح المنزل دون مشيئة أبي؟
وانتصبت العقبة . أبداً مشيئة أبيها . قال : وهل يروقك
الانتظار ريثما يرضى سليم العياش ؟ . . . ولكنه لن يرضى ،
فنبقى حيث نحن ، في غمتنا وبلبالنا . تعالى . السعادة تدعونا
إليها . لا نخيبي للسعادة وجهاً وهي لنا بالانتظار !

فتراجعت وهي تقول : محال !
فلم يرقب منها الممانعة . قال : أبوك ضائع في أمره . فليس
يعاند في زواجنا لسوى حق راسخ في نهيته !
فأعلنت بصراحة جافة : سأبقى في عصمتي ريثما يملك
الصواب !

فأوجعته كلماتها وقد شاع فيها الصدود ، قال متعجباً : أحقاً
ما تعلنين ؟ . . . ولكن الحب يكفر بالحوائل على مناعتها ، فأين
حبك لي ؟ . . . أخداع هو الوجد والوله ؟
فأجابت بصوت حازم لاسبيل فيه إلى التباس وتأويل :
أبي عاش بكرامته ، فلا تدفعني إلى تهشيم هذه الكرامة وأبي في
طريقه إلى الفناء !

— ولكني هشت كرامتي لأجلك ، ضحيت بسمعتي ،

أفلا تكونين مثلي ؟ . . . هل اتفقت وأباك على إذلالى ؟ . . .
شكراً ، عرفت الآن مبلغ هيامك بى !
ومال إلى الانصراف وقد التهب جبينه واستعر بالخيبة صدره
أضاع فى حبها أيامه . فأمسكت به تقول : إلى أين ؟ . . . قف
واسمع قبل أن تلوم !

— يكنى ما سمعت . وداعاً وعفواً عن جهلى وغباوتى !
فاعترضت طريقه وفى مقولها استرحام . قالت : لا تزد فى
آلامى . لقيت فى حبك الأهوال !

فقال بمرارة ناثئة : وأنا ماذا لقيت !
— أنت لو أبصرتنى فى النور لأنكرتنى لفرط نحولى !
— أريد ألا تبصرينى لثلاثرتعدى مما بى من كلوح وذهول !
قالت وهى تكافح فى الاهتداء إلى عذر تنقذ به موقفها :
أترضى بأن يلعننى أبى ؟

فقال وقد استشاط : وأنت أترضين بأن ألقى لأجلك الموت
فى كل نبضة ؟ . . . قتلتنى فى جامى وشبابى لا ترعين لى حرمة .
إنى يغريق الخزية والمذلة فى هيامى بك . فلماذا أجبتنى إلى حبي
وأنت تعلمين أنه ضائع الأمل : لماذا أبحت لى الانحدار فى المهواة

وأنت توقنين أنك عاجزة عن انتشالي منها ، لماذا لم تحولى دون استسلامى إلى هوى يؤوس ؟ . . . والآن ، الآن وقد بات حبك مالكي ، وأصبحت فيه عبداً تسوقنى عصا ، ليس لك أن تجهينى بمستضعف الأعذار للخلاص منى . إنه لجريمة هذا التنصل ، هذا الفرار الدنىء من العهد المقطوع والميثاق المعلن !

فأبكاهما وقد لمست فى بيانه صادق الشكوى . وهوى رأسها على صدره فى التباع أبكم . غير أن وساوسها تكلمت فيها فقالت لا تجهز على . يكفينى ما نالنى من أبى . رجائى كله معقود عليك ، فكن ضنيناً بى . لا تعرض عنى ولا تطرحنى فى المهلكة أستحلفك بالنبل الراسخ فى عرقك أن ترفق بى . ما عليك إذا صبرت لا بد أن يصفوا أبى !

فارتعشت شفتاه بكثرة الارتياح . قال : أبوك لن يصفو وقد نشأ على اعتكار الضمير . هذا رجل لذته فى الإقلاق والشغب . إن لم يجد عدواً يناقمه انقلب على نفسه يخرجها ويماكرها . ليس أمامنا غير طريق واحد لبلوغ الأرب . الفرار والزواج وإلا فلا أمل !

وتجسد هيامه بها فى لظى كلماته . ففى كل لفظة تتقد جمره .

قالت والممانعة رائدها : ولكن أى أثر شائن أبقى فى نفس هذا الأب إذا عمدت إلى الفرار وطعنته فى بياض مشيبه ؟ . . ألا ترانى أقتله وأدعو بيت مرى إلى الزراية به ؟ . . أنت تأبى أن أطلع يدى بدم أبى وأن أسمى كومة فى الأفواه . فالفتاة الهائم بها ابن غندور لا يجوز لها أن تنسفل إلى هذا الدرك الدميم !

فما اقتنع . قال : أبوك يعلو مقاماً وأنت زوجة بهاء غندور فأين الوصمة والجريمة ؟ . . لا تخاطبيني بالكلام الشبيه بالنفاخات المزخرفة ، الجوفاء . ما أنا فى حالة يطيب لى فيها التلهى بالعبث . إذا كنت وفيه لبهاء غندور لحقت به على القور إلى حيث يدعوك . فأظهرى له مبلغ وفائك !

فأخرجها ولكنه لم يظفر منها بطائل . قالت وهى تسعى للعود به عن طلبته : إن كنت لا ترحمنى أفلا ترحم أبى ؟
فهدر : أريد أن أرحم نفسى . نفسى قبل الجميع . هل رحنى أبوك ؟

— أعد عليه الكرة ، فقد يلين !

فرقص منخراه وقد نفذ صبره . ودمدم وهو يصرف بأسنانه :
لقد حطمت كبرياء آل غندور أيتها المصانعة الخبيثة ، فلا تزيدنا

تخطيماً . أبوك لن أعود إليه وقد ملأ القرية افتخاراً علينا وباعنا
 جماع يديه نبلاً وشمماً . وإذا قضى عليّ بأن أقفدك ، أجل - إذا
 قضى عليّ بأن أقفدك وأنا أرفض العود إليه — أسمعين ما
 أقول ؟ . . . — فلا بأس أن أقفدك لإيقاظ بقوى الكرامة على
 تلومها . بيني وبينك هذه الوقفة ، فإما أن تلحقني بي لتكوني زوجتي
 شاء أبوك أم رفض ، وإما أن تبقى درة يتيمة في ظلمة هذا الكوخ
 معقل المجد والشرف !

وغلى في نبراته الفحيح . فهو ناغم ساخر . وأبطأت نظيرة في
 الجواب فانتفض بهاء يقول بالحدة الصارخة فيه : ما بك ، هل
 تولاك الخرس ؟ ... أجيبى بلا زيفان . بت ! لا أطيق الرجرجة .
 أتؤثرين أن تكوني زوجة بهاء غندور ومداك أرض الله على
 رحبها ، أم يروقتك أن تظلي ابنة سليم العياش ودنياك هذا
 الكوخ الرث ؟

فلم يتبدل نهجها . قالت باللجة نفسها : أنا على ما يريدني أبي !
 — حتى إذا أرادك على الانفصال عني ؟

فظلت هي إياها في نبرتها ووقفها ، وأجابت كأنها قتلت فيها
 للحب كل خافقة : حتى إذا أرادني على الانفصال عنك !

فهدمت فيه فضالة الأمل . وصال فيه سخطه على جموح
 فجلدها بقوله : يا كافرة ، كنت على بله يوم إيماني بك . لم تخاقي
 للرفعة ، بل للذلة . ليس بوسعك أن تكوني في الكأس الحباب ،
 بل الحثالة . شئت أن أقيمك على سيدة ، فإذا طبعك الأشل
 يأبى عليك ألا أن تغالى أمة . الضفدع لا تملك القوة على براح
 مستنقع الدرن . فأبقى لذاك النبيل ، العظيم الخطر ، المنبسط
 السؤدد مولانا أيبك !

وعمى . عمى فى قلبه وفى منطقته . وكاد لا يتبين طريقه إلى
 سور الحديقة . فقد تبذل فى حب نظيرة العياش حتى أمسى
 لا يقوى على نقض هوانه عنه . وطوى أزقة بيت مري كرة
 من وعيد تتشظى . لقد دعسه سليم العياش حتى امحى . وأنكر
 قلبه وهواه . فهو منها على براءة . بهاء غندور تقمص الساعة
 جسدا وروحا يتنكران لبهاء الأمس .

ودارت الأرض بنظيرة فانهارت رمة نسفها الأعصار . وهال
 أمها ألا تجد لها فى الفراش والليل يذوب فى أنفاس الصباح
 فملكها الرهبة . أين نظيرة ؟ . . . واستولى على الأم ارتياح
 تلاشت به قواها . وساورها أن الكوخ ملعب نازلة جائحة فأوشكت

أن تذيع مصيبتها بولولتها . إلا أنها خشيت غضبة الزوج وانتشار
 الفضيحة قبل جلاء اليقين ، فبحثت عن نظيرة في الكوخ وهي
 تشدد من عزائمها لثلا تخونها . وزحفت إلى الحديقة والسراج
 يمينها وقد خيب الكوخ مرجاتها . وفي الحديقة بدت لها ابنتها
 مطروحة في التراب كغصن طري قصفته الزوبعة . فتدافعت الأم
 إلى زهرتها المندثرة وقلبها يتفجر هلعاً . فقد تراءى لها أن ابنتها
 جثة احتضنها الموت . وارتمت بجانب نظيرة تصبح بلهفة
 انسجمت وحنينها الجازع : نظيرة !

فطمرت من شفتى الفتاة أنه أحيت بها رهافة الصيحة غفوة
 الحس . فاستطاعت الأم أن تتنفس وهي تسمع ابنتها تن وتراها
 تفتح عينيها . وانحنى عليها بضراعة تقول : انهضى ، انهضى
 يا روح أمك قبل أن يدرى أبوك !

فما خافت عليها وقد اطمأنت إلى سلامتها من سوى أيها ،
 وأم سعيد لاحظت على ابنتها الزهد في الدنيا بعد ما خاشن
 زوجها ابن غندور . فالحياة المتقدة في نظيرة خبت فيها وباتت
 كزهرة يواثبها في العشية الذبول .

وخوف الفتاة من أيها نضا عنها خدر غيوبتها . فنهضت

تنفض ما علق بثوبها من تراب مستندة إلى شجرة من التوت
ضخمة الجذع ، فارغة القلب ، وقد طحنت أحشاءها السنوات
النواقم على الفتوة والنضارة ، قالت الأم . بكسرة في الصوت
وفي الجناح : أياكون هنا مرقدك يا ابنتي ؟

فحبت نظيرة إلى الكوخ دون أن تفيض شفتاها بإيضاح .
وذكرت ما اتفق لها . كلمات بهاء غندور لا تبرح تفرى قلبها وذهنها .
هي ضحية مظلومة . غير أنها لن تكون لبهاء ما دام أبوها لا يرضى .
وغالبت حبها في ثورته عليها وتمت لها الغلبة . على أنها لم
تدرك الظفر إلا وقد أطعمته غدها . فأثرت صون أبيها في
سمعته على نعمى حبها . وذرفت على هذا الحب اللباب دمة ،
دمة انعقدت في الأهذاب كأنها تأبى البراح . فهي أبدأ على
رقرة . تحرق ولا تنجف ، توجع ولا تؤاسى . إنها لأروع كفن
خاطته نظيرة العياش لحبها الشهيد ، المحتاح !

٧

الربيع في بيت مرى فورة غناء وقهقهة طرب . فكل ما في
الأرض والسماء يضحك ببراءة الوليد ولذة المعطاء . فالطير غريد ،

والجدول أنيس الخريز، والساقية — رحم الله الساقية ! — أدت رسالتها ونامت بأمان . فلم يبق منها وهي ابنة الشتاء أثر . بل لم يبق من الشتاء أثر غير ذلك اللبد الأبيض في هامات صنين وجبل الباروك وجبل الشيخ وفم الميزاب . ولولا هذا المشيب القرير المقنعة به صلعة لبنان لأنكر الربيع أباه الشتاء .

وامتلاً الفضاء بالسنونو المزقزق كأنه أبدأ في تساييح ، اللطيف الهيكل على سواد جناح . فهو وجه الربيع الباسم وطليلة موكب المغنين في عرس الحقل . وعلى أناشيد السنونو استفاق بهاء غندور من خيله ذات صباح . فلم يكن بالنائم وهو لا يقوى على النوم ، بل كان في غشية المفجوع بأمانيه السمان .

وألقي نظرة على ما يلفه من رواء فاشتد به الكمد وأطرق . لقد ذوى قبل الأوان ربيع ، فكيف يحفل بربيع دنياه ؟ ... وثقل صدره . فهو يتنفس بمشقة . وخشنت طباعه . فليس يطبق حديثاً ولا تحية وقد كره الناس ، بل كره كل من يدب في أرض ويرف في سماء .

وهام بالعزلة ففر إلى الغابة وقد أضحت مأواه . وهناك ، تحت أشجار الصنوبر ، يقتعد الحجر ويلقى رأسه بين يديه ويضيع عما

حواله . فالنور ، حتى النور ، أمسى بغيضاً اليه . وينأى عنه الفكر
أحياناً ، فيكأنه لولا خفقة قلبه قطعة من جماد . ويأتيه هذا
الفكر فيثور ، يثور على عينيه وكبده وقد ألت به في الحقارة .
ويهبج وهو يذكر سليماً العياش ، تلك البومة الهائمة بمعادلة
النسور . ويتعاضم سخطه كلما خطرت في ضميره ابنة سليم العياش .
وكم تخطر في هذا الضمير وهي مصدر نكته وضناه . يا للكاذبة
المودة ، لو استوت في هيامها على صدق لأفلتت من دلال أيها
ومشت في أثر قلبها . ولكنها محتالة تراوغ في ادعاء الحب وهي
منه على جفاف !

ويقسم بهاء على هجرها . لن يعود إلى الخائنة . وإن هي
أقبلت إليه تعلن زلتها وتسأل الصفح عنها رذلها وتفض في وجهها
امتهانه لها . فليس يلتفت إلى السائلات . ويعتزم أن يساو .
ويعتقد أنه سلا . وتهد أسورة أشجانه ويطرح عنه آلامه .
لا كانت نظيرة العياش . جهلها كأنها لم تنعم منه ببال . غير أن
هذا السلوان لا يثبت أن يطوى ستاره ويتقاع من الحب
الجريح الغليان .

وهكذا تنقضى الأيام . بين محو نزر وسكرة طفحى . لن

يقوى بهاء غندور على مغالبة هواه . فالهيام أعمق أثراً من أن
تذهب به جفوة . واضطرب بهاء إلى الإقرار ، مثله في الصدمة
الأولى ، بعجزه عن المناهضة . فليس حبه غمامة تبددها نسمة .
وضاق به صبره . فما دام النسيان غير مستطاع أفلا يجمل بالمكره
على السلوان العودة إلى الاسترضاء ؟

وغمزته خواطر سود . بم أساء إلى سليم العياش ، وأين الهزيمة
في زفاف نظيرة إلى ابن غندور ؟ . . أليكون الفتى ممن نبذتهم
النخوة فرجع عليه بنو العياش جاهاً ومكرمة ؟

وود النجاة من حيرته . وخيل إليه أن الشفاء هو في الانكفاء
إلى جحيمه ، في الإحتراق بنار مذله وليس يقوى على الفرار من
الويل الجارف . وأثقلت بليته همته فأباح فيه للقدر العاتى النهى
والأمر ، كأنه نتافة من غمامة في الجو الصاخب . لتدفعه الريح أنى
شاءت . لتبدده ذرات خفية في متطائر هبوبها لا تبقى منه على
نزقة من جلالة . فهو ليس أول من فضحه حبه وزلت به القدم
في مهوى الصبايات .

وأنفذ إلى نظيرة يدعوها إلى اللقاء المعتاد . فكان الجواب أبلغ
من طعنة في النحر . قالت ابنة سليم العياش : ما في اللقاء جدوى .

أبي لا يرضى . ليدعني بهاء على شقائي في عنتي المتلاف !
 ولم تنكر أنها مقيمة على العهد . ولكن العقبة أبوها . وتعمدت
 إيلام بهاء وهي تمنع في لقائه . قد توجهه الصدمة فيستيقظ من
 بحرانه وينسى . وهي تريد منه أن ينسى تفريجاً للكربة
 المستعصية . فيميل عن حبه الكؤود إلى حيث يسعد ويهنأ .
 وغاب عنها أنها زادته قلقاً وغشياناً ، وقد أذابت فيه علالات
 المنى . فوقف في اثنين من خدمه بلا إخلاصهما وجرأتهم يقول
 والكلمات تتصاعد من حنجرتة شفاعراً قاطعة : اخطفها وانطلقا
 بها إلى مزرعة البقاع . لا تجعلها المقصورة مأواها احبسها في أحقر
 كوخ واكتأ خبرها . سأسبقكما لإخفاء الأثر والتضليل اضربا
 ضربتكما بعد أسبوع من رحيلي واحذرا رصد العيون . يجب
 تدبير الأمر في ليل !

فانحنيا صامتين . هما يعانيان من الألم ما يعاني . فقد أدركا
 مصابه المبيض . وولاؤهما له ألهب حماستهما في إرضائه . سليم
 العياش تمادى في جلافته والخط من قدر ذوى الكرامة .
 وماج في صدريهما الكره والضغن . على من يستأسد سليم
 العياش في رعونته ؟ . . . نملة تحاول أن تصرع نمراً . وكانا في

ريب بما زعم والد نظيرة في ساحة القرية متبجحاً بالخط من
منزلة بهاء غندور . وضحاكاته طويلاً . أما الآن وسيدهما يدعوها
إلى اختطاف الفتاة فقد آمنا بثروة ذلك المبرطم أبداً ، كأن ليس
في رحاب دنياه من تجدر به ابتسامة !

وتكررت في الحنجرتين الشتائم . وعلا الوعيد مثله بين
شدق جبار مغبون . فلم يكن بهاء في فورة تضارع سورة حزازاتها
وتوارى الشاب عن بيت مري وهو يفيض برغبته . بحجب اختطاف
نظيرة . هذا هو الدواء النجيع ؟

وأبى أن يعود إليها . ففي جوابها الحاطم ما يكفي مشقة الجدل
العقيم . سيبلغ أمنيته بقوة ساعده لا بالسؤال المهين . وما تواني
عن السؤال إكباراً منه لحبه ، فماذا جنى ؟ . التسفيه والمنقصة
والآن ، وكل طريق إلى الحسنى سدت دروبه ، لم يبق غير العنف
ولا بد من العنف لاستعادة السمعة المرضوخة بريئة من الكلوم .
ودوت بيت مري بأجمعها أن بهاء غادرها إلى مزرعته في
البقاع . وقال من لهم في كل موقف رأى ينفثون السخر واللؤم :
نظيرة أضاعته . فليس يقر له قرار ؟

وتمايل سليم العياش في الساحة والأزقة مرشح الأعطاف ،

ضاحك السن . هو وحده استطاع تحطيم أجنحة الصقور . فلقى من بنى قومه الإعجاب . وما خلا من الحسد . إلا أنه حسد خفي لم تطل نواته . فما دام بهاء لم يقترن بنظيرة فلا سبيل إلى الغيرة وليس من جاء علا ولا حسب ساد .

وتهاوس الخادمان في تدبير المكيدة . ستنفجر قذيفتهما في الليل ساعة تخلو الطرق من وقع الأقدام وجولان العيون . وتجلسا أخبار سليم العياش في لياليه . أين يقضى سهراته ؟ وعلمتا ذات ليلة أنه في منزل صديقه نادر الصراف ، وأن نظيرة بقيت وحدها في الكوخ ، نظيرة المحطمة الرجاء ، المقيمة بمعزل عن مباحج الدنيا كأنها من عالم بعيد . فقد ضحت في سبيل أبيها بأجل عاطفة وأعز أمنية . وباتت لا تشتهي غير الفناء في مرضاة هذا الأب بعدما انتثر حبها ، وجف يومها . منذراً بشؤم خدما . ولاحت للخادمين النهضة فما قعدا عنها . فطرقا باب الكوخ يسألان عن أبي سعيد . فأقبلت نظيرة والمصباح في يمينها تفتح لهما . على أنها ما كادت تراهما حتى واثبتها الريبة . هذان خادمان في قصر بهاء غندور . فهي تعرفهما ولا تخفى عليها مغامراتهما . وحسبتهما مقبلين للفتك بأبيها فاهتز المصباح في يدها وأوشكت

أن تسقط إلى الأرض . وعصيا الكلام لفرط ذعرها . وخشى
الخدامان أن تفيض شفتاها بصرخة الارتياح فتفضحهما ، فوثبا
عليها بانقضاء خاطف يكمان فيها ويوثقانها . وحملها أحدهما إلى
مركبة القصر المقيمة على أهبة . وأعاد الآخر المصباح إلى مكانه
وأخفى تحت وسادة الفتاة رسالة مختومة . وأقفل الباب بالمفتاح
وألقى المفتاح إلى المصطبة ولحق برفيقه إلى المركبة ، فانطلقت
مرنة عجلى كالشئمة في الغم الغضوب .

ولم تحمل نظيرة الواهية الأعصاب صعقة المفاجأة فأغى عليها
وتعادت كفتا الليل فعاد سليم العياش وامراته إلى الكوخ وقد
ثقلت أعينهما بالنعاس يغشاها إلمامة أثر إلمامة . وهاجهما جب
الفراش فتلذا برفاهة الوسائد قبل الارتغاء عليها .

وسليم العياش عندما يبرح في الليل كوخه لا يشك في زناره
مفتاح الباب شأنه في غليونته ، بل يخفى هذا المفتاح في ثقب
الجدار . وراء ساق الدالية ، فلا تمحجه عين . وفي العودة يتناولها
من مخبأه دون أن يزعج أحداً بطرق الباب ، ويفتح وينسل
إلى فراشه على مهل وينام بأمان . غير أنه لم يقوَ في هذه الليلة
على إخفاء المفتاح في الثقب الهاجع الساهر ، فالتسيل المنشور

على المصطبة لم يجف ، فعلى نظيرة أن تلمه قبل الرقاد .
وأوجع سليما أن يدق الباب فيوقظ ابنته من نومتها . ولكنه
على اضطرار . وطرق بمتن يده الباب فلم يسمع جواباً . فأعاد
الكرة وليس من مجيب . فالتفت إلى امرأته يقول : ليس من
عادتها أن تفرق في ضجعتها ونحن خارج المنزل ، فما بها الليلة ؟
وعلا صوته يחדش أذن الليل الساجي : نظيرة ، نظيرة ؟
فلا جواب . وحببت الأم إلى نافذة حجرة الفتاة تنقرها
وتلقى بشفتيها إلى ثقب في الخشب منادية ابنتها : نظيرة ، يا عين
أمك ، هلا نهضتِ ففتحتِ لنا ؟

وغضب سليم العياش وقد أمضه الانتظار . وطعن على ابنته
مندداً بسهوها . أتجهل أن أباه وأما سيعودان من شهرتهما
فناصت في رقاد لا يلتفت إلى يقظة ؟ . . وهم بأن يخلع الباب .
فقلت امرأته : رويدك . قد تستفيق . عد إلى مناداتها . فلا بد
أن تسمع ؟

ولكنه لم يسمع . فألقى بكتفه إلى الباب ودفعه بشدة طاغية .
فقضض الباب دون أن تلين فيه جنبه . فجاش سليم حنقا
وأهوى بجميع قوته على الخشبات المعاندة يروم تحطيمها . ففرق

الباب ودار على لولبيه يخبط الجدار بصخب الزوبعة . ودخل
 سليم العياش عارماً ، معتزاً بصلاية عوده ، هادراً كالموج الحاقد
 فلماذا استرخت ابنته في رقدتها ؟ ... وهجم عليها في فراشها يبغى
 أن يهزها في قلبها . وصاح بعد عريضة تموج بالشثيمة : أتنامين
 كالصخرة أيتها البليدة الشعور ، بالثيمة ؟

ولكن أين نظيرة ؟... فالفراش يخلو منها . وليس في الكوخ
 أثر يدل عليها غير ذلك المصباح الأعمش المنتفض على حشرجة
 فانقلبت ثورة سليم العياش إلى ارتياح وهول . أين ابنته ؟ ... هل
 فرت وبهاء غندور ؟... ونادى بعواء المستغيث وقد انطفأت فيه
 العريضة . فأيقنت امرأته أنه لم يهتد إلى نظيرة . وذكرت ليلة
 الإغماء في الحديقة فقالت مستطلعة : ألا تكون ابنتنا في فراشها ؟
 فأجاب وقد لوته الصدمة : أراها ركنت إلى الفرار يا الفضيحة
 في القرية ؟

وشعر بالعار يكسفه ويمسكه بخناقه . نظيرة رفعتة إلى مصاف
 السادة ونظيرة أهوت به إلى ما دون مواطىء الأقدام . ووقف
 وهو يحس أنه يغور في الذلة . وخفت امرأته إلى الحديقة تبحث
 فيها عن الفتاة فما لاح لها خيال يرشد إلى ابنتها . فعادت إلى

الكوخ تجول في حناياه وهي تكاد تسيل هلعاً . وعثرت بالمفتاح المطروح على المصطبة في بحثها عن الفتاة أمام الكوخ . فلم يبق لديها ريب بأن نظيرة تعدت الهرب . ولكن إلى أين ؟

وتعالى في سليم العياش سوء الظن نباحاً : هي في دار ابن غندور لها الويل . قضت عليه وعلى نفسها بالموت !

فقلت الأم بنواح قصيم : حرام أن ترميها بهذه الفرية وأنت أدري الناس بها . ابنتك أرفع من أن يلطخها شين !

فجلدها بصيحته : لعنة الله عليك وعليها . ما عرفت الهزيمة

إلا يوم درجت هذه المشؤومة إلى النور !

فانفجرت بعد طول اضطبار . لقد وهب لها الضغط المتهادي مسكة من رجولة . قالت ودموعها وعيناها وصوتها تشكوه وتندد به . أنت العلة ، أنت الموم . أقبل السعد في خدمتك فركلته . جاء نظيرة من يسمو بها إلى مقام الملوك فسددت دونه الباب . يا ظالم ، أنقذك الله من يوم الحساب !

وارتمت في فراش ابنتها تولول وتنادي ابنتها . وهال سلباً ما هو فيه من نكبة وتهمة فضاع . وهجم على امرأته يمسك بشعرها والوعيد ورشاش الوعيد يزبدان في شذقيه : يا عاتبة ، متى

استنشرت فيك هذه القحة فأصبحت تخاطبينني من شاطئ ؟ ...
 إن لم تخطفني صيحتك خطفت روحك !

وضربها برجله فأزاح الوسادة عن مستقرها . وانتفضت في
 عينيه الرسالة المختومة فراعته أمرها بمن هي ، وماذا فيها ؟ ...
 وتناولها بيديه وأدرك أنها تبطن السر . ولكن من يقرأها له وهو
 يجمل القراءة ؟ ... وتناسى امرأته . فهو بحاجة إلى من يحل اللغز
 ويفك الطلسم .

وطار بالرسالة إلى صديقه نادر الصراف . نادر وحده يجوز
 له الاطلاع على السر . وقرأ نادر برهة في قلبه وبارتجاف في
 صوته ويمينه : « غادرت المنزل إلى حيث أنسى دنيائى . لن أعود
 إليكم . شقائى طال فكرهت الحياة . تناسونى وارحموا ضعفى
 — نظيرة العياش »

فانتشرت الرعدة ، كأن جسمنا حبيباً هوى فجأة في مدرج
 الأكتاف !

ذلك السهو الریاب ، المستديرة عليه العيون في بيت مری
حدث ملياً عن دهمة الويل الباسطة على القرية كابوسها الفادح
وتفتحت الأفواه على جمود وخرس . فليست تطيق إفصاحاً .
نظيرة العياش برحت منزل أبيها ضائعة الخطوات ، فكأنها
بسمة من ندى تغلغلت في مطاوى الريح .

وزحف القوم بأجمعهم إلى كوخ سليم العياش وقد ران عليهم
الصمت مثلهم حيال ضريح تلقمه المجارف التراب . وغصت
المحاجر بذوب الأسى كأن المصيبة تعصب كل جبين . فالكوخ
في مآتم أخرس ، إلا أنه فاجع مبيض .

وازتمى سليم العياش في الزاوية كتلة منبوشة مبعثرة كجدار
تصدع وانهار . فلا عزم ولا وعى وهو لم يكن يقوى على رفع
رأسه للنظر إلى من حوله ، بل لم يكن يجرؤ على النظر إلى من
حوله وقد قذفت به ابنته في مستنقع موبوء .

وخشع المؤاسون ازاء الأبكى الطعين فما خدشوا السكون
الساجى بوشوشة ، بل جثموا في المقاعد أخشاباً على أخشاب .

ولولا غمامات اللغائف المتصاعدة من الشفاء حجة تلوحجة ، العاقدة
في جو الكوخ سماء شفاقة زرقاء لحسب الراى كوخ سليم العياش
معبداً للإبتهاال والسجود .

وتحامت الانظار سليماً كأنها تخاف عليه من خمش وقعها .
وتحلقت النساء حول أم سعيد يذبن الدمع في غيبوبة من ألم .
وودت الأم النطق فأنحبت كلماتها في حنجرة بحاء ولقد استطاعت
أن تتمم بهمس كليل ويدها تصطرعان : ولدى ، ولدى !
فهي تبكى ابنتها وليست تدري أمية هي نظيرة أم مقيمة على
رمى . ويتأوه أبو سعيد دفعة على دفعة . فهو يتوجع في كبريائه
المقروحة . وتطلق شفتاه زفرات لاهجة تفيض حقداً وغلاً لا
ذلاً واستكانة . فلم يشأ الاقتناع بأن ابنته غادرت المنزل إلى حيث
تنسى . فما نأت الا لتلحق بيها . حبها لابن غندور استنفرها
من الكوخ . وينشوى سليم على نار وهو يفكر في انتقام بهاء منه
لقد طعنه في حرمة شرفه طعنة لا يرجى منها براء .

ويطفو على شفتيه الاتهام . ويوشك أن يفضى بزاخر
المكنون . بهاء غندور مرق نظيرة . على أنه لا يملك الدليل على
التهمة . فتتطلى كلماته وهي أجنة ويكره على الصمت مقهوراً .

يعرف الجاني ، ويوقن أنه الجاني ، ولا يستطيع أن يرميه بحجر .
ويعوج رأسه لفرط ارتبأكه . فهو متعب بحمل رأسه ، بل
متعب بنفسه ولم تعصمه ابنته من الزلة . وطوى بعضه على بعض
أشبه بالمتعد الكسيح . وهاجت فيه النيات الحمر فأضحى طالب
نار . ولغت فيه النار فقال إلى اطفائها بالولوغ في الدم .

وأبى أن يشكو أمره إلى حماة الأمن . ماله ولهم . سينتقم بيده
لكرامته . لا يزال في أعصابه إقدام وفي نفسه همة مع هول
الغاشية . وملك القوة على الابتسام وأبناء القرية يسألونه عما
يريدم عليه . قال شكراً لمروءتكم . لقيت من عطفكم ما أنساني
الفاجعة لى . أود أن تقيض مكافأتكم في المسرات !

وأبى إعلان الحفاظ الرائعة في قلبه . على أنه إذا كتم التهمة
فما صبر على كتمانها الناس . فالقرية على مطلق الأفواه المدركة
فيها لفظت عفواً اسم بهاء غندور والنبأ يذيع أن ابنة سليم
العياش توارت عن بيت مري في ليلة ريتا الظلام . وقال الجميع :
ابن السادة انتقم لنفسه من سليم البعيد الخيلاء !

ولم تحفل القرية بالرسالة . هذا تضليل مزرکش . وما تقول
الرسالة ؟ . . . نظيرة تدلى فيها بكرها للحياة وبانطلاقتها إلى

حيث تنسى . وأين تنسى ؟ . . . في كنف بهاء .

وصكت القرية . فالجهامة لم تطل سيطرتها وليس ثمة زهوق
أرواح . ونضنضت الألسن بما تشاء ، هذه الألسن الملتوية منذ
هنيئات قلائل على خرس حزين . فلم تجد بعد انسلاخها من
الوهلة الأولى ، غضاضة على سليم العياش في استئثار بهاء بنظيرة
هذا إكليل غار لا وصمة عار . فالحبيبان وقد لقيا الصدمة بحشا عن
أقرب طريق إلى السعادة اليانعة الثمار .

ولكن أين بهاء ؟ . . . إن القرية لتعلم أنه منذ أسبوع في
مزرعته في البقاع . فالاختطاف وقع والفتى ليس في القرية ،
فكيف ترسو عليه الظنة وهو بمعزل عما حدث ؟ . . . والرسالة
المضلة ، وبعد بهاء عن بيت مري ، مالا بفئة من الناس إلى
الإيمان بأن بهاء برىء الذمة ، نقي الثوب . ولكن سليماً أبي إلا
أن يستبحث ويستوضح ، فما حقق منه الرسل علالة الرجاء .
نظيرة ليست في البقاع وبهاء وحيد في داره ، كثيب الغدوات
والروحات . لا يقيم على دعة ، ولا يأنس برفيق . فقد يقضى
نهاره بطوله ولا يختلج فيه بصوت . غير أن سليماً لم يقنع بما انتهى
إلى مسمعه وقد ظل من بهاء على ارتياب .

وخطر له في ساعة من ساعات اليقظة أن ينضو عنه ظنونه . ربما
فزعت ابنته إلى دير من الأديار، أو ألقت بنفسها في مهواة . فحمل
عصاه وجرابه يغزو أديار لبنان المنصوبة في رؤوس التلال كالأعلام
وقادته خطواته إلى متناى الأطراف . وهو كلما فتح باباً أغلق
عليه السر البعيد القرار . فليست نظيرة في هذه الصوامع ،
جارات السماء .

ولم يحمل إليه الرعاة خبراً عن المهاوى . ولا أفصح الموج عن
اللفظة الشرود . فليست نظيرة في مكان كأنها لم تخلق ولم تقذف
بها الأرحام . فعاد سليم العياش أسيان خزيان ، تقضحه النازلة
وتصفي دمه . فهو هزيل عليل ، يتعثر برجليه وقد نبثا عن
الخطو المساح .

وأي نظيرة ؟ . . . في قبضة بهاء غندور . ليس من ريب
إنها ملك يمينه . وكل ما في ضمير سليم العياش من حدس وتخمين
بل كل ما في نفسه من إيمان ويقين ، حمله على الجهر ببيان الواثق
بقولته إن نظيرة في حيازة بهاء .

وامتدت به قدماه إلى البقاع يبحث عن ابنته . فلن يهدأ في
القرية إذا لم يرجع إليها بفتاته ولورمة بالية . وفي البقاع حدثته

النفس بقتل بهاء غندور وهو مصدر شقائه . سيقتله . فلا يزال
 في الشرايين دم . ولكن أين الدليل على الجرم لتبرير القتل ؟
 وما أفضى البقاع بالأحجية . جال فيه مراراً سليم العياش
 وطاف حول قصر ابن غندور ، وانسل إلى هذا القصر متنكراً
 بزى المستجدي فلم يظفر بظائل . فالقصر بخل بسر . وبدأ بهاء
 لعين سليم ، كما حدثه عنه الرسل ، سقيم الخاطر ، مضطرب الأسارير .
 وحالة الفتى جنحت بوالد نظيرة إلى الاعتقاد أن ابنته ليست في
 يمين بهاء ، وإلا لأشرقت فيه النضرة وضحكت المنى العذاب .
 وحار سليم العياش في تعليل اللغز . أين ابنته ؟ . . . ورجع
 إلى بيت مري أغلف القلب ، مطبق العين غادرها على تلة وعاد
 إليها على إخفاق . ولم يجد غير نادر الصراف يثبته ظلامته . ونادر
 هذا الصديق الأمين ، جزع لاختفاء نظيرة جزع أيها . ولكنه
 وقد لمس في سليم العياش رثاءة القوى بعد اكتناز العود مال به
 إلى طوله الأناة . قال برفق المؤاسى : لا بد أن تقف يوماً يا صاحبي
 على النبأ الراهن ، فلا تياس من فسحة الآمال !

وسليم ، وقد قذفت به مصيبتة عشرين سنة إلى الأمام ، وقد
 تهدم حتى بات كالجذع النخر ، المرن ، يهز برأسه ويقول بصوت

يلهث ويفرقعه السعال : أين هي نظيرة يا نادر إلى متى أرصد أخبارها ولا أفوز بخبر عنها ؟ .. أمسيت أخشى أن يطويني القبر قبل أن أعرف مصيرها . ولست أريد أن أموت إلا وقد عرفت .. وانتقمتم !

وكلمة « الانتقام » تطن وحدها في بيانه فالتلاشي يقيم على لفظاته جماء ولا تملو النبرة في سوى نبسة الانتقام . فتنفجر من فم سليم العياش قاصفة مهتاجة . وعلى الانتقام وقف سليم حطام أيامه . فيقول نادر : تنتقم ممن ؟

— منه ومنها !

— منه ؟ ... ومن هو ؟

فتنصب قامة سليم العياش على التوائها ، وتبرق عيناه بالكراهة الناع ، وتتشنج أعصابه ، ويخشوشن صوته ، ويصيح فيه الحقد الأكل فيزجر : من خاطفها ، من بهاء غندور !

ويود لو تقبض يدها على خناق الفتى فلا يبقى فيه على نفس ، وينقذ من الشماتة والمثلية كرامته النائمة . وذات يوم وهو بعيد على مسمع صديقة حديث الانتقام قال نادر الصراف : ألا تزال تهتم بهاء باختطاف نظيرة يا صاحبي ؟

فصاح وقد استعاد وقفته الساخطة : هو هو الجاني علينا
يا نادر . هو وحده . هدم أنسنا وذهب بصفاء عيشنا . نادر ، يجب
الانتقام من سارق العرض وداعس الكرامة . ولقد قصرت
يميني عن الثأر للشرف الطليل ، فاكتب إلى ابني سعيد وابن
شقيقتي نصير الهاني كي يقبلا لإغاثة الشيخوخة العاجزة . اكتب
اليهما أن أسرعاً غير حافلين بما عز وغلا ، فإن شرفكما لن يزلزل .
قل لهما هَوَاتِ أَبِي سعيد السن عن الانتقام للسمعة الراحة بالأسمال .
فليقطعا إلى البحر سباحة إذا ضاق بهما الأمد عن ركوب البخار .
لست أطيق أن أموت قبل أن أروى الأرض بدمه ودمها !
واعتلج فيه الذل والأثمة فهو أنوف ذليل . العرض الطعين
يهيج به إلى محو الوصمة ، والسن العتية تقعد به عن غسل الدرن
وشفاء الحزازة . فتردد نادر الصراف في الإجابة وقال :
لا تخرجهما . دعهما على طمأنينة . من المجازفة الذميمة أن تضرم
في صدريهما النار . أبلغ أمرك إلى حماة الأمن لإنصافك من
العدوان !

فلم يصغ إلى نصيح ، يجب أن يقف ابنه وابن شقيقته على نبأ
الملة ، وأن يجبرا بأيديهما الخاطر الكسير ، ويمحوا اللطخة

المستأسدة في الجبين . قال بلجاجة : اكتب إليهما . نحن ننتقم
لأنفسنا بأنفسنا . أحس بأن منيتي تدهنى ومن الظلم أن أموت
وروحى تتلجلج في كربتها . نادر ، أصبحت أخشى العيون
المسددة إلى ، فتلوح لى كل عين شامته ، وأتوهم كل فم مورد
سخر ، وينبوي فراشى فلا أنام الليل . ويخيل إلى أن الفراش
والليل يضحكان منى كأنى هزأة المقادير فيعترينى جنون .
لا تلمنى يا صاحبي ، فالضربة توجع حيث تنقض . وإنى من
ضربتى لى ألم الثاكل وخزية الدليل !

وتضائل حتى كاد لا يبين . فأنحنى ظهره وأضحى وهو يستند
إلى عصاه أشبه بالقوس المشدودة الوتر . ولكنها قوس عطلت
من سهمها . وبكى هذا المحدودب الدامى الحشاشة بكاء الجبار
الصريع . وبدا فى رثائته لنادر الصراف قلوبى من نادر بسطة
الجناح . فالمذلة اللاصقة برفيق صباه لطمت قلبه . وما تماسك
عن دمة هاضت ناظريه . شيخان جلبتهما البلية فاندثرا تحت
ركامها الطاحن . وسادها الجمود الخشيان وقد ضاقت بهما البلية
عن الإفصاح .

ولكن أضغان سليم العياش الفائرة لم تمل به عن المناداة

بثأره المنيم . فخلع عنه تلاشيهِ وعاد يصيح بنادر الصراف كمن
لدغته عقرب فاستشاط : اكتب إليهما أن اقبلا . أبو سعيد وهي
ساعده وفي الميدان ضحية من لحكما ودمكبا ينهشها الصغار . شرفكما
تمضغه في بيت مري الأفواه وتدعسه النعال . اكتب ، يجب
أن أرى بعيني الاثنتين الدم يسيل في هذه الرحبة ، فيخضب
بلونه الأحمر التراب . يجب أن يحس الحى والحجر أنى انتقمت ،
واسترحت ، ونضوت عنى العار !

وغلى غليان المعاند . فلم يجد نادر الصراف بداً من الإجابة .
فكتب يقول : « نظيرة توارت عن المنزل . قد يكون خطفها
بهاء غندور ، أسرعا إلى البحث عنها ودفع القضيعة عن العرض
الذبيح . أبو سعيد خاتته القوة في الانتقام . لا تبطئا . فنى البطء
ازدياد هوان ! »

وحمل سليم العياش بنفسه الرسالة إلى البريد يحرص على
إيداعها يمينه مؤتمن النفاثات . هذا سلاحه في بعث الكرامة .
واحتجب في كوخه يرقب الفتوة في لظاها تدين بصلابتها العارمة
الغدر الكاسر المقحام .

عشرون ليلة تقضت في مزرعة البقاع على وحدة في اللون
والنخمة . نظيرة لن تكون لبهاء إلا إذا أجاز لها أبوها أن تكون
في عصمة ابن غندور . وبهاء يضرع إليها أن كوني لي فتجبه
بالصد والنفرة : محال ، محال . اقتلني ، انزع مني حياتي ، فلن
أكون لك برضاي . قد تستعين على بالقوة ، قد تعتمد في النيل
مني البطش ، فتنتهي كما بدأت ، وتجاوز القحة إلى قحة أمضى
ولكنك لن تراني أجيبك إلى طلبتك . بوسعك الانتظار .
فالموت أقرب إلى من تحقيق مشتهاك . كنت مجلفاً عاتياً فكن
ذلك الجلف العاتى . ليس ما يمنعك من المضي في الغدر وتشويه
الأعراض !

وأقامت منه على جفوة مستعصية لا تبيح له أن يمس أطراف
أناملها ، ولا أن يمسك بأطراف ثوبها . وأكرم فيها الممانعة فلم
يتسفل إلى الإكراه . سيستميلها إليه باللين ، بالإقناع . وحاول
فيها هذا الدواء فأخفق ، إلا أنه لم ييأس من المهادنة . لا بد أن
تخلع عنها نظيرة يبوستها وتندي بمواهب الحب . فالقلب المضخ

بطيب الجوى لا يملك القدرة على سد منافذ الطيب .

وانتظر بهاء على نقاد صبره . فلم يشأ استعجال الزمن . ولا يبرح يذكر لقاءها الأول في مزرعة البقاع وقد درست بأنه اختطفها فهاجت كتلة من بغضاء ونقمة . ولقد أودعها الخادمان منزلاً مهجوراً في الضواحي ، ودفعوا إلى ابن غندور سائق مركبته يبلغه نجاح الخدعة . فانتعشت في بهاء الأمنية المقهورة ووثب طافح الشوق إلى المنزل النائي . نظيرة أضحت منه ملء اليدين . فهي له من قمة رأسها حتى قدميها ولم يبق لسليم العياش ، أيها ، أن ينازعه إياها .

وما جهل بهاء أنه سيلقى منها التنديد الصافع . فالاختطاف ليس مما يستطيع فؤادها . وكل ما بعث في خاطره الأمل أنها باتت حيال المكتوب عليها ، ولا بد وقد وضح لها موقفها أن تنحنى إزاء الحكم المبرم فما جاهدت في اتقائه نقد وباتت رهينة الأقدار .

ودنا منها بهاء وفي شفتيه البسمة ، وفي جوانحه الحنين . ولما أبصرته نظيرة مقبلاً طروب المهزة ، معصوب الجبين بنشوة الظفر تجلت لها المكيدة في هولها وخطرها وكانت منها على رجراج

ظنة: وقاسته بعينها تنظر إليه من زاويتيها بازدياء كأنه الفرخ
 حيال النسر. ورشقتة باحتقارها وهو يحبو إليها على رغبة تخرجها
 الرهبة. قالت: إن تكن صاحب هذه المائدة أيها السيد فلست
 أهنتك بانحدارك إلى الغدر. إنها لنذالة لا أرتضى لأمثالك،
 أبناء الكرام، أن يتمرغوا فيها: ولكن عفواً عن جهلى،
 كنت أحسبك أرفع قدراً!

وتسلسلت كلماتها في هزة قاضم يحز في العظم. واتهرها
 الخادمان وزجراها عن الخبائث تلطم بها سيدها، قنهما بهاء عن
 التعرض لها. قال: انصرفا. أريد أن أقيم وإياها على خلوة!
 فدارا على نفسيهما كأنهما على لولب ولفظهما الباب. ووقف
 بهاء من نظيرة على ما دون الخطوة وقال بتأثر المؤمن بحسن
 صنيعه: نظيرة، لا تعتي. حي لك أهاب بي إلى المجازفة.
 حاولت فيك مجهودى فما ظفرت بنائل: رضيت بالزلق عن
 مقامى كى أحظى به نخاب مسعاى. أما رأيتهى أقهر أنفتى وأمشى
 إلى أيبك متمرغاً فى عطفه ومرضاته؟: : وماذا كان من
 أيبك؟: : لقد رذلنى. فصمت على النسيان، أجل، على
 النسيان، فتمرد على قلبى وفزع بى إلى العنف. وما كنت

أرضى بالعنف نحتم به هوأنا : ولكنها مكابرة أييك . عفا الله
عن أييك . فهو قائدنا إلى هذا المصير المنكود !

وتبادر إليه أنه ظفر منها بمكن الاقتناع . فروضها وصقل
نشوزها . وإذا بها تدمدم بكراهة وقد ذهبت عنها سخريتها
وطفرت ثورثها : يا قاتل ، أتدرى ما ارتكبت بمناك ؟ سفكت
دم اثنين ، دمي ودم أبي . خطفت ابنة سليم العياش فمزقت
عرض أيها . وقد يكون أبوها مات مختمقاً بالقضيحة . وكيف
تريد ممن قتلت أباهما أن ترضى عنك ، وتأنس بك ؟ . . إنك
لتطفيء في صدري شعلة الحب لتثير الغل . عُدْ بي الساعة إلى
بيت مري قبل أن تفيض أنفاس أبي على غضاضة ، عُدْ بي إليها
إن تكن ذا مروءة وحمية . فإنك لتنفض يدك ، إن تفعل ،
من جريمتين دنيشتين !

ففارت نزوات بهاء غندور وهو يلقي من نظيرة الخشونة
الواخزة . قال وكل ما فيه يستصرخ النصفة : « أين الجريمة
أيتها العاتية وأنا أريدك للسودد ، وأنا أدعوك إلى مشاطرتي
حسبي وقلبي . لا ، لن تفيض أنفاس سليم العياش على هضيمة
وأنت زوجة بهاء غندور . فإني لمن الأمر على صدق معتقد . .

فإذا رفعك بهاء من رثاء الكوخ إلى نعى القصر فإن أباك
 سيرتفع في دنيا تمور بلا لاء النسب والتشب . انظري ، انظري
 إلى ما حولك من رياض وسهول . هذه كلها ستمسى رهينة
 كلمة تطلقها شفتاك . وسيكون بهاء غندور بين يديك عبداً ،
 ولك أن تشتهى ، وأن تغالى في المشتى ، وعلى تحقيق شهواتك
 على سعة مداها . لم أبخل عليك باسمى وسمعتى ، فهل أبخل عليك
 بثرى مالى ؟ . . . المجرم ، ومن المجرم ؟ . . . أنا أم أبوك ؟ . .
 من الظالم الطاغى ، أبهاء غندور أم سليم العياش ؟ . . كوني على
 نزرة من إنصاف ، على رشاش من صدق ، واعلنى الحقيقة في
 جلوائها . أرفعك من الجحيم إلى الجنة ، من البؤس إلى السعد ،
 وأكون ممزقاً عرض أبيك ؟ . . . ومن مزق الأعراض ؟ . .
 أليس هذا الشيخ النتن الخالع عليك حبة الأنس ودقة
 النور ؟ . . . لقد حمل بيده فضيحتى مشعلاً نزع اللهب ولف
 بها بيت مرى يذيع في خدمى وأنصارى أنه هدم عزتى وهوى بى
 عن وقارى . وما حذاء إلى المثلية ؟ . . ما جرّه إليها رفقته بك ،
 ولا غيرته عليك ، بل كرهه لى . فأقامك مدرجة يرقى عليها إلى
 هدمى إشباعاً لحقد كاسح ، وإرواء لكيد أثيم . فما أنت لديه

غير عصا يضرب بها ، غير قذيفة للنسف . وبعد ذاك لا شيء ،
لا شيء غير شظايا لم يبق من سبيل فيها إلى سبك وصقل .
لو كان أبوك محباً لك ، صادقاً في حديثه عليك ، للقي مجده
وكرامته في ضمان غدك ، في زفافك إلى . ولكنه غمر جاهل ،
حقود كنود . يرى مصلحته في هدم مستقبلك وسعادتك .
يمتطيك لتكوني وقوداً للاصطلاء ، ثم رماداً في الموقد : هذا هو
القاتل الأثيم . من لطح يده بدمين وقتل روحين ، لا بهاء غندور
الساعي لرفعة شأنك ، والنهوض بك من دنى خمورك !
وطفت الحماسة على منطقته فوهبت له بلاغة المقال . وتعالى
صوته رهيباً حانقاً كالزعقة المرتجلة في الليلة الساكنة الظلماء .
فالمضض الملتاع ، والشعور الحى ، جلبجلا في بيانه . وكان له
على نظيرة صولة الغازي ، الممزق الغشاوة عن العين الغلفاء .
فآمنت ابنة سليم العياش بصدق حجته أبوها يريد لها على خدمة
مأربه . إلا أنها مع يقينها بصواب رأى بهاء ، ظلت ممسكة على
عنادها . فمضت في الذود عن أبيها تعصمه من شهوة تسخيرها
لمطمعه . قالت : « لست أرضى الطعن على أبي ، أنا ابنته وهو حرٌّ
في أمرى . لن أكون لك ما دام يأبى أن أكون لك . فلا

تتعبد في ما لا يجدي . عُدْ بي إلى الكوخ ، فإنني أؤثره على دنياك . وكر سليم العياش على ضيعته أحبُّ إلى من موثلك المنيف !
 وغلبتها شؤونها فانهلّ مدمعها وجمجمت بعياء : وماذا تريد مني بعد ما خبا رونتقي وجفت نضارتي ؟ . . . ألا تراني عليه البدن تكاد تطير عني حياتي ؟ . . . روجي على استصفاء ، فما انتفاعك بي ؟ . . . دعني أرجع إلى أهلي وأطلق هناك أنفاسي . فلن يمتدَّ بي الزمن إلى أمد رحيب . نصيبي من دنياي نصيب زهرة تفتحت في بسمة الفجر وانقصفت في ضحكة الصباح !

وشرقت بدمعها ، ووضع فيها ضعف مقالها وهلهة عودها . فهي تناهض حبها لنصرة أبيها . فليست تريد أن يتمرغ ذلك الشيخ المرفوع الرأس في القهر بعد التيه . ولو أعطيت أمرها لكانت لبهاء ، تطلق له يده فيها ، فلا تمنع في طلبه ولا تدفع مقدوراً . ولكنها مظلومة بأبيها . فقال بهاء يعيد الكرة ، وقد لمس في الفتاة طراوة في الكفاح وليناً في الحجة : نظيرة ، لتكن الصرامة لنا رائداً . أنا واقف على ما يصطرع فيك من أضداد . فإن لحب بهاء غندور سلطاناً عليك ، ولمشيئة أيك صولة على

نهيتك ، وأنت حائرة بين القوتين . فلا يطيعك عقلك في
 الإصغاء إلى قلبك ، وثمة إيلام أليك ، ولا ترتضين أن تعيش
 بلا قلب . على أن إجلالك لولى نعمتك أكرهك على الكفران
 بحبك ، فأذلت هواك في مظاهرة العاتى المكابر في طيش .
 وإني لأستطلعك ما يكون من سليم العياش وأنت تعودين إليه
 بعد غياب عشرين يوماً عن كنفه ، ليس من يدري أين قضيتها
 ولا كيف قضيتها . أيجرع كأس المدلة وينام على ضريح الأنفة
 والشم ، أم ينتقم منك بقتلك ؟ . . . وسواء عفا عنك أم أراق
 دمك فإنه لمغبون ، والعار لا يغسله دم ، ولا يذهب به نسيان .
 فإن ناره لتظل على وجهها وإن كستها طبقات الرماد . على حين
 أن عودنا إلى هذا الأب ، تشدّ بعضنا إلى بعض رابطة الزواج ،
 يمحو كل وصمة ، ويجلو كل درن ، ويزيد في لألاء الكرامة .
 قد يغضب أبوك فور مثولنا أمامه زوجين متحدين بالحب
 والأمانة . وقد يلعننا معاً ، ولا بد أن يلعننا تشفياً ، إلا أنه
 لا يلبث أن يصفو ويثوب إلى الرشd . زواجنا لا يلقيه الشنار
 ولا يبيحه للأفواه لوكة . فإن ابنته في عصمة فتى أثير العرق ،
 فما هانت ولا أثمت ، وأحدثته فاجت أرجاً وإن يكن غلب

على أمره في هذه المصاهرة . ولكن أريد لك مغلوباً على أمره
وأنت زوج بهاء غندور ؟ . . . ما لنا وللغباوة تغشانا . متى كان
يحمل أبوك بأن يزف ابنته إلى حفيد سادته ؟ . . . هذه نعمة
لم يكن سليم العياش ليرقبها . ولكنه وقد أذاع قوله فإنه ليأبى
أن يلتوى فيها ، كأن قوله على سخفها وغرورها آية محكمة ،
إذا اختلت نبرة منها أظلمت عين الشمس وبانت الأرض هباءة
في العدم الكتيب !

فمضت في ذرف الدمع لا تجيب . قال : أنا أشرب بما
تنتفضين فيه من حيرة ، وبما يعرفك من عذاب . ولكنى هنا
لتفريج الكربة . ما دعوت إلى اختطافك لسوى إنقاذك .
فإذا شئت أن تصدق عن مرأى أهلك ، فلا قرصك منه تنديد
ولا يهولك زئير ، إذا راقك أن تحتجبي عنه ، فلا ترمضك منه
شجرة ، فقوى نسابق الريح . الجولنا ، والبحر لنا . لنبرح
هذه الديار إلى حيث لا تعرفنا عين ، ولنعش في غمرة المسرة .
لا كانت هذه السموات وهناك سموات أصفى ديباجاً نستظلها .
لنرحل ، تعالى . ما لنا ولهذا البلد الضيق نمختق فيه . فذاك قصور
آل غندور وقراهم وبساتينهم . بسمه في شفيتك أطيب جنى .

لا علينا إذا ضعنا في خضم اللذاذات السميع ، نثقل على نعيم
وطفاء يخضبها الأمل !

وتهادت كلماته تساييح مرنحة سكري ، فهو يتغنى بحبه طليق
الأعنة . فلا حاجز ولا قيد وله الدنيا على بسطتها . وهوت يده
على زند الفتاة تشد بابنة سليم العياش إلى متناهي الآفاق .
فأفلت منه وهي تقول بغصة لهفي : « دعني . لا تلمسني . لست
لك . ابحث عن سواي . الفناء العاجل يرقبني سواء أقمت
بجانبك أم زحفت إلى أبي . لم يبق من عمري غير فضالة . من
الحال أن أعيش ، وخصوصاً بعد اختطافك إياي . ليتك لم تفعل
وقد حكمت عليّ بالموت الوشيك . ولست أبالي الموت مثل
تبكيت ضميرك وأنت تدفعني بيمينك إلى المهواة » !

فاستدرت عباراته . قال وفي عينيه نقشات التياغ بليل :
« نظيرة ، ما هذا التطير من الغد ؟ . . . ما بالك لا تؤمنين
بالسعادة ، لا تضحكين للهناء ؟ . . . ما بالك تعيشين بقلب
ليل أسفع وتنشأمين كالبروم ؟ . . . هذا الحب سقيته بيمينك
فما ، فما يهيب بك إلى القضاء عليه بيمينك ؟ . . . لو أعرضت
عني في نظراتي الأولى إليك لنأيت عنك إلى حيث أستريح

ولكنك أجبتني إلى عاطفتي فأحييتك . والآن وحبنا يوشك
 أن يزهر ، فليثمر . تعالى ، المجال وسيح لاقتناص السعادة .
 الأيام طوال للارتواء من الصبايات . لا تغيب عني في غيوم
 حاكها بادرة الطيش في أيبك . هذه غيوم لا تثبت على لهثة
 تطولينها بها . فالحب الصادق يضيئه أن يتلاشى ويموت !
 فلم تنجح فيها ضراعة . قالت : دعني أذهب إلى أبي !
 فاللجاجة في الإفلات من الطوق لم تدمشها الملاينة . فصاح بهاء
 وقد طفر فيه النزق : وماذا تجدين عند أيبك ؟ . فالذبح يرقبك
 ساعة تلوحين في الكوخ ؟

فأعلنت بمضاء : وهذه شهوتي من زمني ، ليقتلني أبي . على
 أني سأبلغه قبل أن ألفظ روعي أني أقمت على رغبته ، فما خرجت
 عنها في بسمة غادرة ولا في لفظة خوون !

فدمدم : مجرمة ، أنت مجرمة . أبوك لا تمسين كرامته بنخشة
 أما من أضرمت في قلبه النار ، من لويت مدة جناحه وكان يغزو
 الأجواء ، من أذلت همته فخارت صباية إليك ، فلا عليه إذا
 دعسته غير مأسوف عليه . أيتها الكافرة ، لقد أحرقت ، فأطفتي
 تاراً أضرمتها بيديك قبل أن تغوري في تلافيف الظلام !

وكان يلث كمن بذل مجهوداً في عمل شاق . واصطبغت باصرتاه
 بالحمرة كالمنكوب بالرمد . واستندت نظيرة إلى الجدار وصات
 فيها دمعها يعلن بليتها . حبها لبهاء وطاعتها لأبيها يعتلجان فيها .
 وتعتت وقد هوت في الأرض : دعنى . . . أطلقنى من هذا
 الأسر . . . لن أكون لك حتى آخر نسمة من الحياة وأبى يمانع
 فى أن أكون لك . . . إذا قضيت نحبي فى هذا الققص فأبلغ
 أبى أنى مت على دينه . . . لا تتعب فى الحال . . . حبنا فنى . . .
 اتقترن بمن لا تهواك ؟

وسدت عنه أذنيها . فليست تقوى على إصغاء . ويثس منها
 فانصرف عنها وفى أعصابه غليان . ولم يكن يدرى كيف يفوز
 برضاها . وبات موقناً أنه يطلقها إلى الموت فى دفعها إلى أبيها .
 فلن تجد فى بيت مرى غير خنجر رهيف يأوى إلى نحرها دون
 احتشام . ويعيد الكرة . فقد يفتأ الدملى . ولكن لا رجاء .
 فالمأساة تتجدد فى كل يوم على مضض وخيبة . فتبدأ بنفار وتنتهى
 بنفار . نظيرة لن تكون لبهاء وأبوها يلج فى الممانعة . فذاب
 العاشقان وقد نشب فيهما الهزال . يتذلل لها فتشمخ . ويتوعد
 فلا تطأطئ من شموخها . فهى هى فى عنادها الغشوم . فدفع

إليها نساء يجدن تزويق الكلام لإقناعها بالعدول عن مكابرتها
فأصرت على القول : ليذهب إلى أبي وليتمس منه رضاه عن
زواجنا وأنا بين يديه أمة . إن اقترانه بي لرضا السماء عنا . ولكن
أبي لا يريد . وما ياباه أبي لن أقدم عليه . هذا دمي ليسفكه
بهاء انتقاماً مني . فلست أحجب عنه دمي وهو له حلال !

وعلى هذه الوتيرة هلمت ثلاثة أشهر بصبايحها وعشاياها .
بهاء يزحف إلى مودة نظيرة وابنة سليم العياش تلطمه بإعراضها
ولم يكن بالعاجز فيها عن الإكراه . إلا أنه تجمّل عن التسفل
إلى الاغتصاب في من وهب لها صفايا الجنان . فإن لم تستسلم
إليه عن رغبة قلن يحاول فيها الإرغام وفي الإرغام خسة لا ترضى
عنها المودة اللباب .

وتوالت على نظيرة الحشرات . فبليت بالغشيان وقد تعاظم فيها
نحوها . ولم تكن تتذوق من الطعام إلا ما يبقياها على رمق . فاعتزمت
أن تعيش حتى ترى أباها وتقص عليه حكايتها . بهاء دفع رجاله
إلى إخطافها ولم يقوم مع إخطافها على تشويه نضارة العفة فيها .
سلخها من حضن أبيها نقية الصفحة وإنها لتعود إلى مدرج طفولتها
نقية الصفحة . فلا عيب ولا أثم . ولسليم العياش وقد وقف على جلي

غيبتها أن يقتلها اقتصاصاً منها وإن تكن بريئة الذهن مما حاك بهاء للاستثثار بها . إن كلمة أبيها لمبرمة في مصيرها فلن تعترض عليها . وجل ما تنهد إليه أن توضح لهذا الأب أنها لم تدنس عرضه ، ولم تطرحه شلواً لفتكات الأنياب .

وتعب بهاء من الصراع المناهك العقيم ، فمال إلى إقرار نظيرة على طلبتها . فما دامت تلح في العودة إلى أبيها مع كل ما تلقى من استرضاء فنلعد إلى أبيها . وأمسك عن انتهاك حرمتها على تناهيها في إيلامه وصدودها . فلم يشأ تخديش طهارة الزنينة بشمة . وزاد في اقتناعه بتحطيم قضبان القفص المضروبة عليها ما يغشاها من غيوبة إثر غيوبة . فهاله أن تموت وهي في قبضته وأن يكون الجاني عليها . لن يفوز بها . فلماذا يحاول فيها ما لا يطول به جدوى ؟

ودخل عليها في إحدى الأماسى مقوس الظهر كأن في عنقه حجر الرحي . وتدلى حاجباه فانسدلا على عينيه التائهتين بمعنان في كسفهما . فهو وقد خانه جهده إستسلم إلى خذلانه ملتوى العزم ، مسترخى الأعصاب . وزحف إلى نظيرة كالمتعب بالوقوف على قدميه . وارتمى بجانبها وقد تلاشت فيه حتى النبرة . قال

بصوت يكاد يعلوه حفيف اللهثة : نظيرة ، أيقنت أن ليس لى عليك
سلطان . أنت حرة . ستنقلك مركبتى الساعة إلى بيت مرى .
فاستعدى . بلغت أمنيته . حبك لأبيك يرجع على حبك لى
عفواً عنى فى إساءتى إليك . عفواً ومغفرة . لم أكن أدري أنك
تنطوين على هذه الصلابة فى رأى . سيرى بأمان . بهاء غندور
حملك إليه على نقاوة ونصاعة ويعيدك إلى وكر درجت فيه على
نقاوة ونصاعة . فأنت سليمة حتى من لمسة تمجلين بها . قومي إلى
مدرجك ، فليس من يعوقك عن الرجعة . وإذا خطر لك يوماً
أن تقبلى بمطلق رضاك إلى ابن غندور فإن ذراعيه مفتوحتان أبداً
لمعانقتك وقد ختم قلبه عليك . انصرفى . من المحال أن أعرف
الهوى بعد شغفى بك !

وتهاودت كلماته ببطء الكابى الحبير كأنها تمجى فى موكب
جنازة . وغالب نفسه على النهوض وليس يملك الهمة . ونادى إليه
خادميه المقدامين ، خاطبهما من بيت مرى ، يخاطبهما بلهجة شامت أن
تكون صافية آمرة فما أعطيت المكنة . قال : عودا بها إلى منزل أبيها !
ووقف منها بادية الإجلال ، كسير العين ، لا يلتفت إليها .
فهو بين معجب وناقم . معجب برسوخها فى الحرص على نواهى

أيها ، وناقم على خزيه في حبها . وطالت عليه وقفة الخشوع .
ولما رفع عينيه ولقى نفسه وحيداً في المنزل المهجور النائي ، وسمع
بأذنية هدير الدواليب في السهل ، أدركه الجزع وندم على تسامحه
الوخيم . فإلى أين أطلقها ؟ .. إلى المسلخ . فلا بد أن يفتك بها أبوها
وانتصب شعره ، وجحظت عيناه ، وساده الرعب فركن إلى
الفرار . وكل ما في المنزل يميل به إلى الفرار : الذكريات
المشتومة وإفلات نظيرة . وركض يلحق بالمركبة داعياً إياها إلى
الوقوف . وتعالى صوته وقد نفّض عنه البحة . ولكن المركبة
كانت تغيب في السهل كالزوبعة العارضة ، تهبّ جاثمة ثم
تتوارى في الأفق البعيد وقد أبت بعدها دواراً من شدة ، تخرس
به الألسن ، وتتيه العيون ، كأنها تتفتح على حلم بكى رهيب !

١٠

ذلك الكوخ المرتفع في بيت مري بنحجله البليل ، لم تكن
تتحقق في حناياه نبضة تلتصع فيها المسرة . فهو ساكن كالموت ،
بارد كالضريح . قد تشق سماءه زفرة ، وتهز هدوءه أنه ، على أنه
لا يلبث أن ينكفيء إلى جوده ، كأنه من سكانه على قطيعة .

ومن يسكنه ؟ ... سليم العياش وامراته . فافتعد كل منهما زاوية مستسلماً إلى شجونه وشؤونه . فالدمع لم يرحم سليماً ، بل أذله ، وقد سال على الخدين المتجعدين يمرح في أرض بكر لم يسبق له أن غزا مراعيها . ويجلس سليم ورأسه بين يديه لا يرفع ناظريه للنور ، وأحياناً لا يفتخهما . بلى ، كان يطل آناً بعد آن من شباك في الكوخ على البحر المشور أمامه كصفحة من كتاب ، يخط سطورها القدر . وفي هذه الصفحة يقرأ سليم العياش ما يملئ الزمن من كلمات ، وما يمحو من أثر . وكلما لاح له فيها دخان أدكن ، يشق الأفق ، متواجاً كشعر الكاعب الناهد في مهب العاصفة الجوح ، انتفض في نفس والد نظيرة رجاء ، وومض في ذهنه أمل . هذه باخرة تقل سعيداً ونصيراً ابنة وابن شقيقته ، إلى شاطئ لبنان ، إجابة للدعوة الطائرة وانتصاراً للعرض المضميم .

ولكن البواخر تنساب في بطون الأمواج ، رائحة غادية ، وسعيد ونصير لا يظهران في بيت مري ، مع أن سليماً يرقب طلتهما بجلد المحموم . واتفق الاختلاط بالناس محاذراً أن تقع عليه الأبصار المنددة بالقضيحة ، المتهكة بالمصيبة الغادرة . فأبى

أن يمشى في القرية مثقلاً بعاره . فلن يبدو فيها إلا وقد نضا عنه الغضاضة الكاسية أحدثته . ولم يكن يدلف حين تضيق به أنفاسه إلى سوى نادر الصراف صديقه . نادر وحده يتألم للظلمة ويتوفر على تضميد الكلوم برقق ونبل مؤاسة . وفي مسمع هذا الصديق ينفث أبو سعيد أوجاعه ومخاوفه . فيميل عليه نادر الصراف بالبلسم داعياً إياه إلى الثقة بالغد . فلا بد أن تبدد الغمام ويصحوا الجو .

وما أهمل سليم حراسة حقله ، والإشراف على غلة كرومه ، إلا أنه كان يقوم بعمله بوجوم وشبه غفلة . فلا يفكر حتى في ما يدر منه ، كأنه ليس في دنياه . وعلاه الشحوب . وتناسى لحيته فطالت تجلله بيباضها كأنها تنسج له كفنه . على أن زاويته في الكوخ مقره الدائم . فلا ينفصل عنها إلا لماماً ، كبريق النجم في الليالي الدم . وفي الزاوية ترين عليه وساوسه . ابنه وابن شقيقته لم يعالناه ما سوف يكون منهما . فهما في صمت مهيب . أما وردت عليهما رسالته وقد أودعها بنفسه البريد ؟

وتعض قلبه نظيرة كلما فكر فيها . وهو يفكر أبداً فيها برهبة المرعوب . نزعته من مفرقه كل ما تألق فيه من أكلة غار

واستعدت عليه الدنيا . فما شعر بالذل مثله ونظيرة تطير عنه الى
حيث لا يدري ، بل هو يدري ، ابنته آثرت عليه ابن غندور
وفزعت الى حماه ، لها الموت أتجحد أباهاً وتعقه في سبيل لقمة
مدمثة بالأفاويق ؟

وينام ولكنه ليس بالنائم . إنه لفي تخدير لانت به أعصابه .
واستوى لديه الليل والنهار . فكلاهما ظلمة . وتساقطت الليالي
على وتيرة واحدة في سمعه وفي بصره . كأنها هدير طاحون ، فما
تبدلت فيها نغمة . بلى ، لقد التقطت أذنه في إحدى العشايا الجهم
صدى خطوات صلاب يباب الكوخ . فلم ينهض للاستيضاح
إلا أنه أرهف وعيه . وطرق الباب طرقات عنيفة جافة . فعوى
سليم العياش : من ؟

فتبر صوت خفيض ، غير أنه خشن أنوف : نحن افتح !
هذه رنة صوت يعرفها ، ولكنه خشى فيها المضلة ، فأعاد
سؤاله : من ؟

— افتح وسوف ترى !

فاستند إلى الجدار ونهض متمسكاً على رجله المرتجفتين ،
فبدا بما عراه من نحول شبحاً تبدده زعقة . ودرج إلى الباب وفي

ذهنه أخيلة تتوالب . من المقبل ؟... ولم يكن على عيائه بالجبان
 ففتح وأطلق عينيه في العتمة الخصبية . واستطاع أن يرى ويعرف
 مع صفاة الحلكة . وهوى على العتبة وقد عرف وفي صدره
 الشهيق . لقد فوجيء بمن يرقب طلتهما . سعيد ونصير ، ابنة
 وابن شقيقته . وثبا إليه من العالم الجديد للانتقام للعرض المهتوك
 فلم تضل عنهما الرسالة المتظلمة .

وأضاءت أم سعيد السراج وكل ما فيها على رعشة . وما
 ترامت نظراتها إلى وحيدها حتى كادت ترتطم على البلاص
 المبسوط أمامها من هول المفاجأة . بيد أنها تمايلت وزحفت
 إلى سعيد كومة من لوعة . فانتفض فيها النواح يشكو الضيم وانحنى
 سعيد لتقبيل يد هذه الأم السمراء المتجعدة اليابسة . فضمته أمه
 إلى صدرها وقد لفت يمينها على عنقه وهي تقبله بفيض من دموعها .
 وما ارتوت من تقبيله ، فكأنها تروم أن تدخر ما فاتها . وأذاب
 أنينها مقالها فتمتت شفتاها يا حبيب أمك ، جئت تنقذنا من الداهية
 النافثة فينا سمها ؟... ما كنت أريد أن أراك على قلق وهزيمة !
 وشدت به إليها كأنها تود أن تسكنه في حوائرها . وأدنته
 من السراج كي تتبين ملامحه . فإذا به تلم الرجولة ، عريض

الألواح ، تموج في قامته وطلعت النضرة . فعادت إلى ضمه وهي
تغمغم في سورة من دموع : لتقبر أمك ، كنت أشتى أن أبعث
هذه الكأس عن شفيتك . أنت لم تخلق لتشتى !

والتوت على نصير تقبله كما قبلت سعيداً ابنها . فالأثنان عديلان
في مودتها وحنينها . وكان الشابان قد حملا سليماً العياش إلى صدر
الكوخ وهما على عبوس المنكوب بالكرامة . وفتح سليم عينيه
ينفض عنه الصعقة ، وأجالهما في سيفيه ، ابنه وابن شقيقته ،
فماجت فيه هزة الرضا . إنهما لمن الشباب في الذروة . فقد أقبلا
كما تمثلهما ، ثورة جارية . ونهض إليهما يقول مستجمعاً قواه
على رثائتها : أجبنا الدعوة ؟... مرحباً بكما !... كوانى الانتظار
أتدريان ما حل بنا ؟... إهانة وثبتت بي إلى القبر . فلا يدرك وقعها
إلا من ذاق طعمها . ولكنى أبيت أن أموت إلا وقد محوت
اللطخة عن عصابة العفاف . وحاولت أن أنتقم بنفسى لنفسى ،
غير أن همى خاتنى فأقت أرقبكما : بهاء غندور اختطف نظيرة
ونظيرة أختك يا سعيد . معقد شرفك ، وخطيبتك يا نصير مرجاة
قلبك . أعددتها لك يا ابن أختى ، فجاء من يسلبك إياها ويطرحنا
في الشين والخزيرة !

فصهلا كالجياذ في يوم النقيع وقد تساقطت كلماته خناجر
 مسنونة في نحر يهما . وصرفا بأسنانهما وومض الشرر في الأعين
 الأربع ، وغرزت أظفارها في راحاتهما . أين بهاء غندور ليمزقاه
 إرباً إرباً وياً كلا كبده امعاناً في الانتقام والتشفى ؟ ... قال
 سليم العياش بصوت يغرورق فيه الدمع الحائق : أراد نظيرة للزواج
 فأبيتها عليه وهي محبوسة على نصير . فما كان منه إلا أن خطفها
 وفرّ بها لست أدري إلى أين . وكل ما أدري أنه خطف عرضنا
 وسلخ أنفتنا منا . نحن اليوم في بيت مري بمقام الأندال . وعد
 إلى التضليل وهو يختطفها . فدعاها إلى تحبير رسالة زعمت بها أنها
 ملت الإقامة بينا وفرعت إلى حيث تنسى ، وأين تنسى ؟ بين
 ذراعى الوغد بهاء غندور . سعيد ، نصير ، بهاء يجب أن يموت
 مذبوحة بأيديكما ، بهذا تقضى أحكام الشرف فالقرية بأجمعها
 تنتظر أن ترى كيف تهض بصيتنا من العثار ، وكيف تغسل
 جباهنا من المعرة ، أوثر أن تقتلاني إذا لم تغمسا في دمه
 خنجريكما . إن الهزم بنا ليعلونا ، والزراية بقدنا تجثم في بابنا
 كأنها لنا عنوان وشعار !

فألهبهما بركاناً طاغياً . فزجرا : له الويل ، أين بهاء ؟

— في مزرعته في البقاع ونظيرة بين يديه . بحثت عنها
هناك ، عنده ، فلم أجدها . هو يخفيها . اقتلاه واقتلاها وإلا
فلنمت أو فلنرحل . هذه قرية لم يبق لنا فيها عيش إن نحن
غفونا على الفضيحة !

فماجت الأم تعترض ، فصاح بها أبو سعيد المتفجر الأوتار :
إياك والتدخل في ما لا يعنك وإلا قتلتك بيدي . فلا يزال في
الأعصاب بقيا من عزم ترديك وتنقذني من شؤمك !
فهدر سعيد : جئنا لإنصاف أنفسنا . فاللطخة لا يغسلها إلا
الدم . وسنغسلها بالدم . ليعتمد أبي علينا !
وقال نصير : الموت للاثنين معاً . سنقتلها ونرجع على الفور
دون أن يدري أحدٌ بنا !

فانتشى سليم العياش بما يسمع . قال : كنت موقناً أنكما لن
تخيباني في محو اللطخة . عشتا . أمامكما الليل تجولان فيه
وفي النهار هذا الكوخ مأواكما . وإذا اضطرتما إلى ارتياد
البقاع فتذكرا ، وأنا الضمين أنكما تعيشان طويلاً بسركما !
وانتصب بعزيمة الشباب يجمعهما تحت جناحيه كالنسر بين
الأفراخ . وضمهما معاً إلى صدره يقبل فيهما طراوة الوجنت على

صلابة العزيمة ، ويقول : ا كفياني شر الهوان . سُدَّتْ على الطارق
إلى ساحة القرية . أنا منذ غشيتنى النازلة سجين الكوخ ، لا
أجرؤ على التفاتة إلى عين !

وتحسبوا خطأً يجلد التراب . هل درت القرية بعودة نصير
وسعيد من العالم الجديد فتفرت إلى الكوخ تستبيح منه
الوحشة ؟ ... وارتد سعيد إلى الباب يفتحه ويحاول أن يشق
بناظره مكتنز الدهمة . وتراءى له خيال يدلف إلى الكوخ .
كالمهدود الحيل . فصاح بغلاظة في النبوة : من ؟

فكان الجواب رهيباً : أنا ... نظيرة !

فلا تردد ولا خشية . وكأن زلزلة فجأت الكوخ فماد . من
قذف بالفتاة إليهم في مثل هذه الساعة الرهيبة ؟ ... فكأنهم
وأياها على موعد مضروب . ووثب عليها سعيد يمسك بشعرها
ويجرها إلى الكوخ ويقفل الباب . فليس يريد أن تملو الضجة
ويسمع الجيران مع بعد الجيران عن الكوخ الأعزل . ووقفه
الجميع حيال نظيرة واجمين . وتبينوها بقلق ونقمة كم تبدلت .
لا يكاد يبدو منها أثر لوسامة . لقد هزلت حتى أمست لا تعرف
فكانها من أشباح القبور . وانقضت عليها أمهاتذود عنها بما بقى فيها

الزمن من همة كالدياجة المروعة في فرخها . فهاج سليم العياش
والثفت إلى سيفيه المجردين للضرب والطمع يقول بنزق أبعد هاعنها !
فامتثلا ، وأوثقا الأم ، وضربا الكمامة على فمها وطرحاها في
حجرة نائية . فالموقف يدعو إلى الغلو في الحذر . قال سليم العياش
وقد ثمل بالظفر الداني القطوف ، ولم يكن يرقبه سهل المقم :
العناية تسعفنا في طلبتنا وتذلل أمامنا المشقة . ها هي الخائنة بين
أيدينا . فرت من المنزل فوجب فيها الموت . هذا اقتصاص العدل
منها ، بل هذه مشيئة السماء . اقتلاها على مرأى منى . إني أشتى
أن أراها تختلج في دمها . ما أرحم القدر وقد جنبنا العناء في
الاهتداء إليها !

وسمعت نظيرة وأدركت ما يريد أبوها فيها . وواثبها شقيقها
وابن عمها بمديتيهما نمرين ظامئين إلى النجيع النقيع . فرفعت
يديها تشير إلى أنها تبغى الكلام ، بل هي صاحت تهيب
بالمديتين إلى الجمود في اليدين المتكلبتين عليهما : اقتلاني .
الموت ذبحاً نصيب من أقدم على فعلتي . ولكن قبل أن تبطشا
بي لا عليكما . بل لا عليكم جميعاً ، إذا أصغيتم إلى حكايتي !
فالتفتا إلى أبيها يستوضحان . وكاد أبو سعيد يأبى عليها الإفاضة

بنامة . فهو يشاق أن يبصر بها على الفور تنزف دما . لقد
 حنت أذناه إلى شجرة الذبح تعلو من حنجرتها . ولكنه ود
 الاطلاع على ما اتفق لها في غيبتها . فمن هو خاطفها ، وماذا كان
 منه فيها ؟ . . قال بقسوة يغلي فيها السخط الراجع : لتكلم !
 فقالت نظيرة : لست أبغى اتقاء الموت . براحي المنزل إلى
 حيث لا يجوز لي أن أبرحه يفرض عليّ مدّ عنقي للذبح . بهذا
 يقضى العرف . وهذا هو الإنصاف . بيد أني أرغب في معالنتكم
 قبل موتى أن من أكرهت على مغادرة هذا المكان بشرفها .
 تعود إليه بشرفها فامسها إثم ، ولا حل بكم عار . فالعفة الناشئة
 عليها ظلت معتصمة بها . سامح الله من جرنى إلى حيث
 أقلقت منكم الشموخ والسمة !

وحنت رقبتها للمدينتين المتعطشتين للارتواء من نداوتها وهي
 تعلن باستسلام رضى : اقتلاني دمي لكما حلال . فكل ما كنت
 أطمع فيه أن أوضح لكما حالي . أما وقد فعلت فلم يبق لي حاجة
 إلى البقاء !

ولكن سلباً العياش أبي الاكتفاء بما سمع منها . فصبرخ بها
 وهو يكاد يخنق بأضغاثه : تكلمى أيتها المنغصة علينا صفو

العيش ، من خطفك من الكوخ ، وإلى أين خطفك ؟
 فأجابت بهدوء يطقو عليه الجزم : حسبكم أن تعلموا أن
 شرفكم لم يثلم ، وأن عرضكم لم تدنسه المذلة . وهذه عنقي لتنتقموا
 مني . فاذبحوني !

فراهم صفاء وجهها ومقالها . فما رهبت ولا استرحمت كأنها
 راضية بحكم الموت عليها ، بل كأنها لا تبالى الموت . وألح أبوها
 في معرفة اسم خاطفها ، فلم تلفظ هذا الاسم . فالحب الراسخ فيها
 أبي عليها أن تطرح من تهوى طعماً للشفار . فما كان من سليم
 العياش إلا أن هجم عليها بغورته العاتية وضرب مراراً رأسها
 بالأرض وقد تعالى فيه الزئير : افصحى ، لعنة السماء عليك ،
 من قادنا وقادك إلى العار ؟

فأصيبت بالخرس : لن تعلن اسم خاطفها . فاحترق سليم
 خيبة ومضضاً وتوالى فيه زئيره : من ؟ ... من ؟
 فكأنه يزعق في صحراء . ويثس من الوقوف على السرفندفق
 بكلمات تغلى كأنها على فوهة بركان : سعيد ، نصير ، اقتلاها ،
 إني أخشى عليكما من الاختناق بسم أنفاسها . لمت ولنكفن
 بجثمانها الولىء ما شانتنا به من أرجاس .

على أن الباب ططق وتطايرت خشباته قبل أن تتكلم
 المديتان . وإذا فتى يفتح الكوخ كالإعصار عارضا على نصير
 وسعيد صدره وهو يفيض بالقول : قفا . لا تمساها بوخزة . أنا
 الجاني عليها . اقتلاني واصفحها عنها . أنا خاطفها . فانتقما مني ،
 مني وحدي . أما هي فعليكم أن تفاخروا بها نصاعة الأفلاك . هذه
 نبتة ريتا تفوح طهرا ونبلا . أقت تسعين يوما على إقناعها بأن
 تكون لي زوجا فأعرضت عني . لم ترض لأن أباه لا يرضى .
 انتقموا مني دون سواي وباهوا بالشم والعفة وجه الشمس . هذه
 فتاة يشتهي ندى الصباح أن يستقي نقاوته منها !

فعرفوه . هذا بهاء غندور . وأدهشتم منه استماتته في الدفاع
 عن نظيرة . قال : أنا دفعت رجالي إلى اختطافها على كره منها ،
 وكتبت رسالة التضليل لإخفاء آثارها . لا تقتلوا البريئة من
 العيب والظنة ، بل اقتلوا الجاني الأثيم !

فقال سعيد ونصير إلى سماع رأي عميد الأسرة وراعيها الأمين .
 فلم يتبدل سليم العياش ، قال بكلوحه اليبيس : اقتلاهما معا .
 خطفها فأذلنا . وبرحت المنزل فاستحقت الموت !

فصاح بهاء : بل اقتلونى وحدى ، أنا المفترى على الطهارة
والكافر بالأعراض ؟

وعلا صوت نظيرة معلناً : هو برىء من دعواه . اذبحونى
وانقذوه من جريمة لا يد له فيها !

فارتجفت المدينتان فى قبضتى نصير وسعيد . ماذا يفعلان ؟ ..
وظهر المسخ فى سحنة سليم العياش . فهى تلال وأودية . على أن
سليما لم يخرج عن وعيه مع انقلاب ملامحه . فأعول : القتل
للأثنين معاً . حياتنا بموتهما . أنقذانى من الدمامة المائلة لعينى .
يكاد من مرآها يتولانى الفشيان !



فى الصباح الباكر ، فى القرويون فى بيت مرى يفضون عن
عيونهم الهجعة ، وينغدون إلى حقولهم على آمال فساح ، إذا
جمود الذعر ينصبهم فى ساحة القرية أعمدة خرساء . فقد وقفوا
أمام رأسين مقطوعين بجثمان فى معرض الساحة وقد خضبهما
النجيع . وما تجرأوا إلا بعد لأى على الدنو منها يعروهم الحذر
والخوف . وتجلت لهم الأسارى فازدادوا رعباً . هذا رأس بهاء
غندور سيد القرية ، وذاك رأس نظيرة العياش . فحمد الدم

في العروق يعاند في النبضة لفرط الهول . هذه صرعة العاشقين .
وتلجلجت الألسن لا تنضّ بنأمة . فما انتفض غير القلوب .

وقد توارثت في خفقان هلوع حيال النازلة . بلى ، جالت
العيون الجاحظة في العيون الجاحظة تتبادل الارتياح الكاسح ،
وتكاثفت الصفوف كأن منادياً أذاع في القرية النبأ ، ولكن
أين آل غندور وما أقبلوا ينظرون ما حلّ بزین شبابهم ، بلوائهم
المشور ؟ وأين سليم العياش يبصر بابنته مطروحة في ساحة القرية
مضروبة العنق ؟ لقد عادت الى القرية ، غير أنها عادت اليها
رأساً بلا جسم !

وما للسؤال عن سليم العياش وهو القاتل ، فالجريمة فرضها
الانتقام ، الانتصار للعرض ، وإلا فمن يروّع الحبيبين في طمأنينتهما
النشوى ؟ على أن إبلاغ سليم مصير ابنته مما لا غنية عنه ، والنحدر
نفر من القرويين في وثبة الشرر ينقلون إلى سليم نبأ الداهية ،
وسليم على المصطبة ، تحت الدالية ، يدخن غليونه بلاذاة الناعم
البال ، لقد طال انقطاعه عن هذه الهناءة ، ووقع النبأ بأذنه فلم
يؤمن به ، قال منكرأ ما يغزو مسمعه : ابنتي في ساحة القرية
مقطوعة الرأس ، ويحكم ، أي ثرثرة تهزكم ؟ هل ألم بكم جنون ؟

قالوا : رأسها يجثو في التراب بجانب رأس بهاء غندور !
فأعلن بنخبث : لقد حيرتموني !

وانتعل مداسه وقبض على عصاه . ووثب إلى الساحة بهمة
يعصف بها الشباب . فقد عادت إليه العزيمة الخائرة . وفي
الساحة وقف أمام الرأسين وقفة غير المبالي ، كأنه تعود مرأى
الحواطم الدوامى . ونكت رأس ابنته بالعصا المسكة بها يمينه .
وإذا به يهز رأسه هزة المرتاب على مشهد من القرية جمعاء ،
ويقول بنبرة زادت في طغيان الهول : لا ، هذه ليست ابنتى .
ابنتى لا تنتهى إلى هذا الهوان !

وأدار للرأسين ظهره . وسلك طريقه إلى الكوخ بانتفاش
وزهو والعيون المربعة تصيح به : يا قاتل ، يا سافك الدم !
فلم يلتفت إلى الوراى وليس من أثر فى الكوخ يدل على
ارتكاب الجريمة . فقد غسل سعيد ونصير الأرض من الدم بعد
قطع الرأسين . وهما حمالا الرأسين إلى ساحة القرية دليلاً على
استيفاء الانتقام حذّه . وأخفيا الجسدين فى كيسين وتزحلقا بهما
إلى أدغال بيت مري بطرحانها فى أعماق الكهوف . وتابعا
مسيرهما إلى الشاطئ . وقد نفضا عن السمعة الغبار الكاسى

وأعاد الشرف إلى حرزه الحرير . أطلا في مدرج الليل وغابا في
فحة الليل كالأشباح ، فليس من سمع ولا رأى .

وهوى سليم العياش في جشمته وقد رجع من ساحة القرية بهيج
الخاطر ، قرير العين ، واستلقى على البلاس المبسوط تحت الدالية
يدخن غليونته المانع وقد خلع عنه الضغينة والمذلة . وابتسم وهو
يرى امرأته تنشج في الزاوية ولا تجرؤ على رفع الصوت . فقد
انتقم للصيت المكوم فشفاه من جراحه وبات يقوى بعد الليالي
العجاف ، المكفهرة ، على الانغماس في رقدة حاملة ، على المصطبة
الهائثة ، فيما الشمس تدغدغه بخيوطها الصباح ، الغوادن ،
المتساقطة إليه من ثلوم الدالية ، مع العناقيد الزوج !

أقلام

سلسلة كتب شهرية للحيثية يشترك في تأليفها
أشهر الكتاب في مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها دار المعارف بمصر

آراء بعض كبار الأدباء

- « مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر في
تغذية الأدب والثقافة » ...
- « زاد فكري في مختلف أبواب العلم والأدب يستفيد
الجمهور وترضى عنه الخاصة » ...
- « لهذه السلسلة جهد في سبيل نشر الثقافة وتنمية
التعب وإزالة الفروق بين الطبقات » ...

التمن بالنسخة

سوريا ولبنان

العراق

فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملاً

• • مليا

• • مليا

مصر

السودان



0617216